*

TIGHT BINDING BOOK

*

*   *

مجنون ليلى

تأليف

احمد شوقي بك

مطبعة مصر ١٩١١/٣١/١٠،٠٠٠

*

الى صاحب السمو الملكى

الأمير فاروق ولى عهد الدولة المصرية[٦]

فاروقُ يا بنَ خيْرِ أبْ   وأرفعَ اسمٍ فى العرب

أهـدى اليـك والى   أبنـاءِ جيلِك النجُبْ

ومَنْ يلى جيلَك مِن   نَشْءِ الغدِ الفطْنِ الأرِبْ

الـكافلين النيـلَ مِن   مَنبعـه الى المَصَبْ

الطـائرينَ كالنّسو   رِ لدّائرينَ كالشهُبْ

المالئينَ المُلْكَ من   كتائبٍ ومن كُتُبْ

روايةً من خُـلُقٍ   مُهَذَّبٍ ومن أدبْ

بيانُهـا السهلُ الى   بدائِعِ الفُصحَى سَبَبْ

تُمَثِّلُ البيـدَ على   عهدِ اميّةَ النخَبْ

ولمحـةً من الحِجا   زِ وهو فى عصرِ الذهبْ

فى جاهليّـةٍ على   نَظْمٍ من الخلْقِ عَجَبْ

تَفيضُ من بُطولة ومن قوافٍ وخُطَبْ
ألبَسها « مُحَمَّدٌ » ثوبَ الحضارة القشِبْ
أصلح من بُنيانها وشدّه من الطُّنُبْ
ما كان من خيرٍ بها أقام ، أو شرٍّ ذهبْ

شوقى

*

تمهيد

زمن الرواية :

صدر الدولة الأموية

مكان الرواية :

بادية نجد

أشخاص الرواية :

قيس — مجنون ليلى

ليلى

المهدى — أبو ليلى

ورد — زوج ليلى

ابن عوف — أمير الصدقات فى الحجاز وعامل من عمال بنى أمية

زياد — راوية قيس وصديقه

منازل — غريم قيس فى حب ليلى

بشر — رجل من بنى عامر

ابن ذريح — شاعر من شعراء الحجاز

نصيب — كاتب ابن عوف

سعد — رجل من بنى عامر

الغريض — مغن مشهور

ابن سعيد — شاعر

أمية — رفيق ابن سعيد

الأموى — شيطان قيس *

عضرفوت

هبيد
شياطين
عسر

عاصف

بلهاء — جارية قيس

عفراء — جارية ليلى

سلمى

هند
فتيات من بنى عامر
عبله

رجال — قوافل — حداة — صبية — فتيات

الفصل الأول

« ساحة أمام خيام المهدى فى حى بنى عامر — مجلس من مجالس السمر فى هذه الساحة — فتية وفتيات من الحى يسمرون فى أوائل الليل ، وفى أيدى الفتيات صوف ومغازل يلهون بها وهم يتحدثون — تخرج ليلى من خيام أبيها عند ارتفاع الستار ويدها فى يد ابن ذريح »

ليـلى : دعى الغزْلَ سلمى وحَيِّى معى
منارَ الحِجازِ فتى يَثْربِ (١)

« تصافحه سلمى »

ويا هنِدُ هــذا أديبُ الحِجازِ
هلمِّى بمَــــقدَمِهِ رحِّبى

« تصافحه هند ويحتفى به السامرون »

ســعد : أمِن يثربٍ أنت آتٍ ؟

ابن ذريح: أجل من البلدِ القُدُسِ الطيِّب

ليـلى : أيا بنَ ذريحٍ لقينا الغمام

---

(١) يثرب ــ المدينة المنورة

*

هنـد : وطافَتْ بنا نَفَحاتُ النبي

« عبله — هامسة الى سعد »

مَن ابنُ ذَريحٍ ؟

سعد : فتًى ذِكرُه

على مَشرِق الشمس والمغرب

رَضيعُ الحُسَيْنِ عليه السلامُ

وتِربُ الحُسَيْن من المكتبِ

« عبله — الى بشر ومشيرة الى ابن ذريح »

أتسمَعُ بشرُ رضيعُ الحُسَيْنِ

فديْتُ الرضيعيْن والمُرضِعهْ

وأنت إذا ما ذكرنا الحسينَ

تصاممتَ !

« بشر — هامسا ومتلفتا كأنما يخشى أن يسمعه أحد »

لا جاهلاً مَوْضعهْ

ولكن أخاف أمرأً أن يرى علىَّ التشيُّعَ أو يَسمعَه

احبُّ الحسينَ ولكنما لسانى عليه وقلبى معه !
حَبَسْتُ لسانىَ عن مدحه حِذارَ أُميّةَ أن تقطعه
إذا الفتنةُ اضطرمتْ فى البلاد
ورُمْتَ النجاةَ فكُن إمّعَهْ !

ليلى : إبنَ ذريحٍ نحن فى عزْلةٍ فهل على مُستفهِمٍ منك باس؟
دارُ النبىِّ كيف خلّفتها ؟
كيف تركتَ الأمرَ فيها يُساسْ

ابن ذريح: تركتُها ياليلَ مَضبوطةً يحكُمُها والٍ شديدُ المراسْ
إن حديثَ الناس فى يثربٍ
همسٌ وخطوَ الناس فيها احتراس

ليلى : إبن ذريح لا تجُرْ واقتصِدْ أحلامُ مرْوانَ جبالٌ رَواسْ
يؤسِّسُون المُلْكَ فى بيتهم
والعُنْفُ والشدةُ عند الأساس

« تتضاحك الفتيات وتقول احداهن لأخرى »

فتاة : ليلى على دينِ قيسٍ فحيثُ مال تميلُ ؟

وكلُّ ما سرَّ قيســـا   فعنــــد ليلى جميلُ

ابن ذريح: ما الذى أضحك منى   الظّبياتِ العــامرية

ألأنى أنا شِـــيعِىٌّ   وليلى أُمَـــويَّه ؟

إختلافُ الرأى لا يُفْســـدُ للود قضــيه

ليــلى : أعِرْنى سماعَك يابنَ ذريحٍ   ولا تسمَــعِ الطفلةَ الهاذيه

أتَيْتَ لنا اليومَ من يثربٍ   فكيف ترى عالَمَ الباديه

أكنتَ من الدور أو فى القصور

ترى هـــذه القُبَّةَ الصافيه ؟

كأن النجومَ على صــدرها

قلائدُ ماسٍ على غانيـــــه

هنــد : كفى يابنةَ الخال ! هذا الحريرُ

كثيرٌ على الرمَّة الباليــه

تأمَّل تر البيــدَ يا بن ذريحٍ

كمقــبرةٍ وَحْشَةٍ خاويه

سئمنا من البيد يابن ذريح   ومن هــذه العيشة الجافيه

ومن مُوقدِ النارِ فى مَوْضِعٍ

ومن حالب الشاة فى ناحيه

وراغيةٍ من وراء الخيام

تُجيبُ من الكَلأْ الثاغيه[1]

وأنتم بيثربَ أو بالعراق   أو الشام فى الغُرَف العاليه

مُغَنِّيكمو مَعبَدٌ والغريضُ   وقَيْنتُنا الضَّبُعُ العاويه

وقد تأكلون فُنونَ الطهاةِ   ونأكل ما طَهَتِ الماشيه

ليلى : قد اعتَسَفَتْ هندُ يا بنَ ذريحٍ

وكانت على مَهدها قاسيه

فما البيد الا دِيارُ الكِرام

ومَنزلةُ الذِّمَم الوافيه

لها قُبْلةُ الشمس عند البُزوغ

وللحَضَرِ القُبلةُ الثانيه

ونحن الرياحينُ مِلْءَ الفضاء   وهنَّ الرياحينُ فى الآنيه

(١) الراغية : الناقة والثاغية : الشاة

ويقتلُنا العشقُ والحاضراتُ يَقُمْنَ من العشق فى عافية
ولم نصطَدِم بهموم الحياةِ ولم ندرِ ـ لولا الهوى ـ ماهيه
وآنا نخف لصيْد الظباء وآنا الى الأُسـد الضارية

« هند — ساخرة »

وفى كل ناحيـةٍ شاعرٌ يغنّى بليـلاهُ أو راويه

« تحاول ليلى أن تمد رجلها فتتألم وتستغيث »

ليـلى : قيسُ ، إلىَّ قيس
هنـد : ما دهاكِ ليلى ما الخـــبرْ
ليـلى : أحس رجـلى خدِرت حتى كأنها الحجَرْ
هنـد : قد صحتِ قيسُ مرتين
ليـلى : أو ثلاثا ما الضرر
هند متهكمة : اسم الحبيبِ عنـدنا نذكره عند الخدر (1)
ليـلى : هنـــد كفى دعابة إن هو الا اسمٌ حضر

« لنفسها »

(1) خدرت الرجل : نملت

يا قيسُ ناجَى باسمك القلبُ اللسانَ فعثَر

عبلة ضجرة : أماسوى هذا الحديثِ شاغلُ ؟

كيف ظلِلْتَ اليومَ يا منازلُ ؟

« منازل — ضاحكا »

منازلُ اليومَ كأمس هازلُ يشربُ أو يَطْعَمُ أو يغازلُ!

هند : بخٍ ! كذا فلتكنِ الحياةُ مُت يابعيرُ وانفقى يا شاةُ

آنغمست فى الترف الرعاةُ !

ليلى : وكيف ظلِت اليوم سعدُ ؟ أهازلٌ

كِتربك أم فى صالِح ورشادِ !

سعد : بل الجدُّ ياليلى سبيلى وديْدنى

حياتى بِوادٍ والمجُونُ بواد

صحبتُ زيادا طول يومى تلقفا

لأشعار قيس من لسان زياد

وإنَّ زيادا ـ منذ كان ـ لرائحٌ

علينا بشعر العامرىّ وغاد

ولولا زيادٌ ما تمثّل حاضرٌ بأشعار قيسٍ أو ترنم باد

« يبدو على ليلى شيء من الزهو فتتهامس الفتيات »

سلمى : انظرى هند ترىْ ليلى اكتست زهواً وكبرا
وتعالت كابنةِ النعمان أو كابنة كسرى !

هند : لِمَ لا سلمى ، ألم يَرْ فعْ لها المجنونُ ذكرا ؟

عبلة : لِمْ إذن يا هندُ من قيسٍ ومما قال تَبرا ؟

هند : عَبَثُ النِّسوة إنا نحن بالنسوة أدرى !

سلمى : سلوا الآن بشرا فيم أنفق يومه ؟

« أصوات » سلوه

هند : سلى ياليلَ عن يومه بِشرا

ليلى : وهَل يومهُ الا شؤونٌ كأمسه من الصيد؟

هند : إن الصيدَ لذته الكبرى

بشر : نعم هو ملهايَ الذى لا أمله
ولا النفسُ تُعطَى عن تناوله صبرا

ولو كان عيشى فى قصـــــور أميّـةٍ
لعلّمتُ فنَّ الصيـــــد فتيانها الزهرا
وما أنا صيّادُ الأرانبِ مثلَهم
ولكن على حيّاته ألـجُ القفـــرا
ليـلى : إذن هاتِ واصدُقْ بشرُ فى القول مرّةً
ولا تخترعْ أو تَبنِ من حَجَرٍ قصرا !
بشر : دعى عنكِ هـذا السُّخْرَ ياليلَ واسمعى
ليـلى : تحدّثْ فـلا واللهِ لم أُضمِرِ السُّخْرا
بشر : بكَرتُ كدأبى اليومَ أبغى قنيصةً
ومَن يتصيّدْ يحسبِ الغُنْمَ والخُسرا
(رأيت غزالا يرتعى وَسطْ روضـة
فقلت أرى ليلى تَراءت لنا ظُهرا) [1]
« هند — مشيرة الى ليلى »
وأىَّ الليــــالى بشرُ آنست ؟ هذه
بشر : إذاشئت — أوهاتيكِ — أوحُرةً أخرى

---

(١) الأبيات التى بين الأقواس من شعر قيس

فقلتُ له ياظــــبىُ لا تخشَ حادثا
(فانك لى جارٌ ولا ترهب الدهرا)

(فما راعنى الا وذئبٌ قــــد انتحى
فأعلق فى أحشائه النابَ والظُّفرا)

(ففوّقتُ سهمى فى كَتومٍ غمستُها
فخالط سهمى مهجةَ الذئبِ والنحرا)

ليلى ضاحكة : أخى بشرُ لا شُلت يمينُك من يدٍ
ولا فَضَّ فاكَ الصبحُ والليلُ ما كرّا

سمعنا بإقــــدام اللصوص وفتكهم
فلم نر أدهى منك فتكا ولا أجرا !

ووالله لم تغضب لظبــــى ولم تثبْ
بذئب ولم تُعمِلْ خيالا ولا فكراً

أخذتَ فلم تترك لقيسٍ بضاعةً
سرقتَ لعمرى الظبىَ والذئبَ والشعرِا !

« ضحك من الجميع »

حديثُ الظبيِ والذئبِ وقيسٍ لستُ أنساه
زيادٌ عنــــه نبأنى ولا ينبيك إلاه
رأى قيسٌ على رابيــــة ظبيا فناداه
فألقى الظــبيُ أذنيهِ ومسّ الأرضَ قرناه

« ثم تقول فى لوعة وصوت مخفوض وكأنما تحدث نفسها »

بروحى قيسُ! هل راحت ظباء القــاع تهواه ؟
وهل يَرثى له الريمُ ولا أرثى لبلواه

« تسترسل فى حديثها الأول : »

على فيه من العُشْبِ بقــايا صبغت فاه
رأى فى جيده قيسٌ وفى عينيه ليلاه
فبينا هو فى الشوقِ وفى نشوة ذكراه
حبا الذئبُ من الوادى الى الظبى فأرداه
تغــدّى بحَشا الظبى غَــــداء ما تهنّاه
رماه قيس فى المقتل بالسهم فأصماه

« بشر : مندفعا بحماسة ! »

أجل ياليلَ ! ما قلتِ سوى شيء شهدناه
وإن لم تذكرى القبرَ ولا كيفَ خططناه
حفرنا القبرَ للظبيِ وقمنـــــا فدفناه
وصلَّينا على الميْتِ وبالدمع سقيناه
فقولوا ولتقل ليلى معى يرحمُه اللهُ !

« أصوات : بين الضحك والسخرية »

أجل بشرُ !

أجلْ بشرُ !

أجل يرحمه الله !

ابن ذريح: بشرُ كفى هزلا وتخليطا كفى
ويابنةَ العم مضى الليلُ سُـدى
أرسلنى قيسُ فلو أخـــــبرتنى
متى مـــتى بأمر قيسٍ يُعتنى ؟
بتنا نخـــــافُ أن يحِلَّ خطبُه
وتبلغَ البـــــلوى بقيسٍ المَدى

وقيسُ ياليلى وإن لم تجهلى زين الشباب وابنُ سيدالحمى
لم ندرِ فى حيِّك أو فى حيه فتى حكاه نسبا ولا غنى
ولا جمالا ، وهنا (ياليلَ) ما ترينَ أنت لا الذى نحن نرى

بشر ساخرا : بخٍ بخٍ ! ابنُ ذريح خاطبٌ

ابن ذريح : أسكت فلست للمروءات أخا !

ليلى غاضبة : فيم هذا الكلامُ يابن ذريح ؟

ابن ذريح : إتقى اللهَ واقصِدى فى التجنى

ليلى : ما تجنّيت

ابن ذريح : بل ظلمت ، دعينى
أحسنِ الذّودَ عن صديقى وخِدنى

ليلى : أنا أَوْلى به وأحنى عليه لو يُداوَى برحمتى والتحنِّى
يعلمُ الله وحده ما لقيس
من هوًى فى جوانحى مستكِن
إنى فى الهوى وقيسا سواء
دَنِفٌ قيس من الصبابة دَنِى

أنا بين اثنتين كلتاهما النا ر فلا تلْحَنى ولكن أعِنّى

بين حرصى على قَداســـــة عرضى

واحتفـــاظى بمن أُحبُّ وضنى

صنتُ منذ الحداثة الحبَّ جَهدى

وهْو مستهترُ الهــوى لم يَصُنِّى

قد تغنى بليـــــلة الغَيْلِ ، ماذا

كان بالغيــل بين قيس و بينى ؟

كل ما بيننا ســلامٌ وردٌّ بين عين من الرفاق وأُذن

وتبسّمتُ فى الطريق إليه ومضى شأنه وسرتُ لشأنى

« تهيب بالسامرين وقد بلغ بها الغضب أقصاه »

أوْغل الليلُ فلنقمْ

ابن ذريح — متوسلا »

بل رويدا واسمعى (ليلَ)

ليــلى : خل عنّىَ دعْنِى !

« تدخل خباءها بينما ينفض السامرون فلا يتثاقل منهم فى القيام »

« الا منازل — الهرج والأسف يسودان الجميم »



قد تغنى بليــلة الغيــل ماذا   كان بالغيل بين قيس وبينى ؟

(صفحة ١٤)

بشر : انفضَّ سامرُ ليلى   وكان حَفْلاً كريما

سعد : قد فَضَّه ابنُ ذريح   ففض عِقداً نظيما

أثار ليلى فهاجت   كما تنفِّر رِيما

ترى أتُبغِضُ قيسا

ابن ذريح : لا تقلبوا الحبَّ بغضا

ليلى العشيةَ غضبى   ويُصبح الصبحُ ترضى

سعد : أنعم (مُنازِ) مساء

منازل : نُعِمتَ سعدُ مساءَ

هند : بشرُ مُسِّيتَ بخيرٍ

بشر : أنعمى هندُ مساء

هند . نحن يحوينا طريقٌ   فامضِ بلِّغنى الخِباءَ

سعد — ضاحكا

احذرى يا هند منه !

هند : أنا لا أخشى اعتداء

قد عرفتم وعرفنا   كيف يصطاد الظباء !

« تسمع ضحكاتهم من أقصى الطريق بينما يظهر »
« قيس وزياد من جانب المسرح الآخر »

قيس . سجا الليل حتى هاج لى الشعرَ والهوى
وما البيدُ الا الليلُ والشعرُ والحبُّ
ملأتَ سماءَ البيدِ عشقا وأرضَها
وحُمِّلتُ وحدى ذلك العشقَ يارب
ألمّ على أبيات ليلى بىَ الهوى
وما غير أشواقى دليلٌ ولا ركبُ
وباتت خيامى خُطوةً من خيامها
فلم يَشفنى منها جوار ولا قرب
إذا طاف قلبي حولها جُنّ شوقُه
كذلك يُطْغِي الغُلةَ المنهلُ العذب
يحن اذا شطت ويصبو إذا دنت
فياويح قلبى كم يحن وكم يصبو
وأرسلنى أهلى وقالوا امض فالتمس
لنا قبسا من أهل ليلى وما شبوا

عفا اللهعن ليلى لقد نوّتُ بالذى
تحمّلَ من ليلى ومن نارها القلب

« منازل — وقد سمع همهمة الصوت ورأى شبحيهما فى الظلام »

أرى شبحا مقبلا فى الظلام وأسمع همهمة فى الدجى
هو ابن الملوَّح دل الهُزالُ عليه ونمّ اضطراب الخُطا
عدوى المبين وما بيننا ولا بين صاغيتينا[1] جفا
روى شعرَه البدو والحاضرون وشعرىَ ليس له من روى
وهام بليلى وهامت به لقد كنت أولى بهذا الهوى
تشرَّد مستعظَما فى البلاد وجُنّ فما ازداد الا نُهى
وإنى لأُبدى اليه الوداد وأخفى له فى الضلوع القِلى
وأحسُدُه حسداً ما علمت أقيسُ الشقى به أم أنا

« يتقدم منهما خطوات »

مَن الراكبُ الليلَ ؟ قيسٌ أخى ؟

قيس : منازل ؟ ما أعجبَ الملتقى !

---

(١) صاغية الرجل قومه

منازل : أقيساً أرى فى ظلال البيوت ؟

وعهدى بقيس حليفَ الفلا

قيس : منازل ، من أين ؟

منازل : من عندها من السمر الممتِع المشتَهى

قيس ـ حنقا : أمن عند ليلى تجرُّ الذيول

حديث لعمرُ أبى مفترى

منازل : بل الصدقُ ما قلتُ يا ابن الملوَّح

قيس : إخسأ متى قلت صدقا متى ؟

وما كنت تصنع ؟

منازل ـ ساخرا : ما يصنعون لهوت لعمرىَ فيمن لها

وسامر ليلى كثير الزّحام فلست تعدُّ شباب الحِمى

وليلى تُفيضُ على من تشاء رضاها وتحرمُه من تشا

زيادمغضبا: منازل ، قيسُ ، سبيلكَ قيس !

وكِلْ لىَ تأديبَ هذا الفتى

« منازل — وقد أخذ بتلابيبه »

تؤدبُنى زيادُ وأنت ظل لمجنون وراوية لهاذى

وتُزْعِمُ أننى نِدٌّ لقيس

رضِيت من المصائب غيرَ هذى !

زياد : من قال ذا ؟ أنت لقيس نِدٌّ

لم يبق فيكِ ياحيـــــاةُ جِدُّ

إمضِ بنا ناحيـةً يا وغد !

« يجره الى حيث تسمع أصواتهما من بعيد ثم تختفى »

« فيقبل قيس على خباء ليلى وينادى »

قيس : ليلى !

« المهدى : خارجا من الخباء »

من الهـاتف الداعى ؟ أقيسَ أرى ؟

ماذا وقوفُك والفتيان قد ساروا

قيس خجلا : ما كنتُ ياعمُّ فيهم

المهدى : دهشا : أين كنت إذن ؟

قيس : فى الدار حتى خلَتْ من نارنا الدار

ما كان من حطب جزْلٍ بساحتها

أوْدى الرياحُ به والضيفُ والجار

المهدى منادياً : ليلى ــ انتظر قيس ــ ليلى

« ليلى ــ من أقصى الخباء »

ما وراء أبى ؟

المهدى : هذا ابن عمك ما فى بيتهم نار

« تظهر ليلى على باب الخباء »

ليلى : قيس ابن عمى عندنا يا مرحبا يا مرحبا

قيس . مُتِّعتِ ليلى بالحياة وبلَغتِ الأربا

« ليلى : تنادى جاريتها بينما يختفى ابوها فى الخباء »

عفراء

« عفراء ملبية نداء مولاتها : »

مولاتى

ليلى : تعالَىْ نقضِ حقا وجبا

خذى وعاء واملئيه لابن عمى حطبا

« تخرج عفراء وتتبعها ليلى »

قيس : بالروح ليلى قضت لى حاجةً عرضت

ما ضرها لو قضت للقلب حاجاتِ

مضت لأبياتِها ترتاد لى قبسا

والنار يارُوحَ قيسٍ ملء ابياتى

كم جئتُ ليلى بأسباب ملفقة

ما كان أكثر اسبابى وعلاتى

« تدخل ليلى »

ليلى : قيس

قيس : ليلى بجانبي كلُّ شىء إذن حضرْ

ليلى : جمعتنا فأحسنت ساعةٌ تفضُلُ العمُرْ

قيس : أتجدِّين ؟

ليلى : ما فؤادى حديدٌ ولا حجر

لك قلبٌ فسله يا قيس ينبئْكَ بالخبر

قد تحملتُ فى الهوى فوق ما يحمل البشر

قيس : لستُ لـيلاى داريا كيف أشكو وأنفجر ؟

أشرح الشوقَ كله أم من الشوق اختصر ؟

نبّنى قيس ما الذى لك فى البيد من وطر ؟

لك فيهـا قصائدٌ جاوزَتْها الى الحضَر

كلُّ ظـبيٍ لقيتَه صُغت فى جيده الدرر

أتُرى قد سلوْتنـا وعشقتَ المهَا الأُخر ؟

قيس : غِرتِ لِيـلى من المها والمهـا منك لم تغَر

حبّب البيدَ أنهـا بكِ مصبوغَةُ الصُّوَر

لستِ كالغيـدِ لاولا قمر البيـد كالقمر

« ليلى : وقد رأت النار تـكاد تصل الى كم قيس : »

ويحَ عيـنىَّ ما أرى قيس !

قيس : ليلى

« ليلى : مشفقة » : خذ الحذر !

« قيس : غير آبه الا لما كان فيه من نجوى »

رُبَّ فجر سألتُه هل تنفست فى السحر
ورياحٍ حسبتُها جرَّرَت ذيلكِ العطِر
وغزالٍ جفُونهُ سرقت عينكِ الحوَر

ليلى : اطرح النارَ يافتى انت غادٍ على خطر
لهبُ النار قيسُ فى كمك الأيمن انتشر

« قيس : مستمر بعد أن رمى النار من يديه : »

وذئابٍ أرقَّ ياليلَ من أهلِك الغُـيُر
أنِستْ بى ومرّغت فى يدى الناب والظفُر

ليلى : ويح قيسٍ تحرقت راحتاه وما شعَرَ

قيس : انت أججتِ فى الحشا لاعجَ الشوقِ فاستعرْ
ثم تخشيْنَ جمرةً تأكلُ الجلد والشعرَ

« يترنح قيس فى موقفه وتظهر عليه بوادر الاغماء » :

ليلى : فدَاكَ أبى قيس،ماذادَهاك؟ تكلم،أبِن قيس،ماذا تجد

قيس : أَحسُّ بعينىّ قد غامتا وساقىّ لا تحملانِ الجسدْ

« يخر صريعاً الى الأرض فتتلقاه على صدرها صارخة »

ليلى : يا لِأبى للجارْ قيسٌ صريعُ النارْ مُلقىً بصَحن الدارْ !

« يخرج أبوها من الخباء على صوت استغاثتها »

أبى ها أنت ذا جئت أغثنا أبتِ أدركْ
لقد حُرِّق بالنارِ فما يصحو إذا حُرِّكْ

المهدى : يرانا الناسُ ياليلى

ليلى : أبى أنف الناسَ من فكرك
هنا لا تقعُ العينُ على غيرى ولا غيرك
ولا يَطّلعُ إنسانٌ على سرى ولا سِرك
ولا أجدرُ من قيس باشفاقك أو برك
أبى صدرىَ لا يقوى فأسندْه الى صدرك

« المهدى — وهو يتلقى عنها جسد قيس ويحاول انعاشه »

رعاكَ اللهُ ياليلى وكافاك على صبرك
أخافُ الناسَ فى أمرى واخشى القلبَ فى أمرك
وكم داريتُ ياليلى وكم مهّدْتُ من عذرك



أبى ها أنت ذا جئت   أغثنا أبت   أدرك

(صفحة ٢٥)

ولست الوالدَ القاسى   ولا الطامعَ فى مهرك

« يناجى قيسا فى غيبوبته »

أبا المهدىّ عوفيتَ   ويا بورك فى عمرك

أرانى شعرُك الويلَ   وما أرْوى سوى شعرك

كما لَذّ على الكُره   كلامُ الله للمشركِ !

« يتحرك قيس ويبدو عليه كأنما يفيق فيناديه »

قيس

« قيس — يحاول الوقوف فتسنده ليلى »

لبَّيك عمّ

المهدى : حسبُك فاذهب   لا تطأْ لى بعد العشيّةِ دارا

ليلى : أبتى لا تجُرْ على قيس

المهدى : لِمْ لا   إن قيسا على القرابةِ جارا

ليلى : أبتى ما تراه كالفَنَن الذا

وى نُحولا وكالمَغيب اصفرارا ؟

وتأملْ رداءه ويديْه   تجد النارَ أو ترَ الآثارا

أبتى دَعْه يسترح

المهدى : بل دعينا

لا تزيدى يا ليلَ سُخطى انفجارا

قيس : حسبُ ياليلَ ، حسبُ ذلا لعمّى

وكفى حِلفةً له واعتـــــذارا

عمُّ ماذا جنيت ؟

ليـلى : ماذا جنى قيس

المهدى : نسيتَ الرُّواةَ والأخبـــارا

قيس : إنهم يأفِكون يا عمِّ

المهدى : والغَيلُ أليلاً غشِيته أم نهـارا ؟

ما الذى كان ليلةَ الغَيْل حتى

قلتَ فيها النّسيبَ والأشعارا ؟

قيس : لم تكنْ وحدَها ولا كنتُ وحدى

إنما نحن فِتيـــــةٌ وَعذارى

جمعْتنا خمائلُ الغيل بالليل كما يجمعُ الحمى السُّمّار

لیسَ غيرَ السلامِ ثم افترَقنا   ذهبتْ يَمنةً وسِرتُ يسارا

المهدى : إمض ياقيس إمض لا تكسُ ليلى

كلَّ حينٍ فضيحةً وشنَارا

فكأنى بقصة النار تُروى   وكأنى بذلك الشعر سارا

وكأنى ارتديتُ فى الحى ذلا   وتجللتُ فى القبائل عارا

إمض قيس امضِ

قيس : عمُّ رفقا بليلى   وبقيسٍ ولا تكن جبارا

الحذارَ الحِذارَ من غضب الله   ومن سُخطه الحذار الحذارا

المهدى : إمض قيس امض جئت تطلب ناراً

أم تُرى جئت تُشعلُ البيتَ نارا ؟

« يخرج قيس »

« ستـــــــــار »

*

الفصل الثاني

« طريق من طرق القوافل بين نجد ويثرب ، على مقربة من حى بنى عامر حيث »
« تبدو مضارب هذا الحى على مدى البصر وعلى سفح جبل التوباد ـ قيس وزياد »
« جلوس الى جذع نخلة ، يستشرفان شبحا يسير نحوهما »

قيس : زياد ما تلك ؟ مَن الجُوَيْرِيَه ؟
أتلك (بلهاء) ؟

زياد : أجَل قيس هَيَهْ

« تظهر بلهاء وعلى رأسها قصعة »

قيس : بلهاء كيف الحىُّ ؟ كيف أُمَيِّه ؟

« بلهاء — وهى تضع القصعة »

تســــأل عنكَ كما ســـألتَ

« تبدو على قيس كراهة للطعام وعزوف عنه »

زياد : بالله ياقيسُ إلا أكلت

« يشتد ميل قيس عن الطعام »

بلهاء هامسة لزياد : زيادُ ما ذاق قيسٌ ولا همّـــــا

زياد : طبخُ يدِ الأمْ يا قيسُ ذُقْ مِمّا
الأمُّ يا قيسُ لا تطبُخُ السُّمّا

« ينزع عن القصعة غطاؤها »

تعالَ تأمّلْ قيسُ ، تلك ذبيحةٌ

قيس : عسى اليومُ نحرٌ

زياد : أين نحنُ من الأضْحى ؟

قيس : أرى صُنعَ أمى يازيادُ ، فَدَيتُهَا

بروحى وإن حمّلتُها الهمَّ والبَرْحا

ستخبرنا البلهاء

زياد : بلهـــــــــاء بيِّنى

ولاتـكتمى عنا الحديثَ ولا الشرحا

بلهاء . لقـد مرّ عرّاف اليمامةِ بالحمى

فما راعنـــــــا الا زيارتُه صُبحا

طوى الحىَّ حتى جاء عن قيسَ سائلا

وأظهرَ ما شاءَ المودّةَ والنُّصحا

ولاحت له شاةٌ جَثُومٌ بموضعٍ
تخيَّلُها ظلا من الليل أو جُنحا
فقال اذبحوا هاتيك فالخير عندَها
فقام اليها يافعٌ يُحسِنُ الذَّبْحا
فقال انزعوا من جُثة الشاةِ قلبَها
فلم نألُ قلبَ الشاة نزْعا ولا طرْحا
فلما شويناها رَقَى بعزائمٍ
عليها وألقى فى جوانِبها المِلْحا
وقال اطلبوا قيساً فهــذا دواؤه
كأنى بــه لمـــا تناوله صَحَا

زياد : تعلّلْ قيسُ بالشاة عساها تُذهبُ الحُبّا
فمـا العرّافُ بالمجهو ل لا علماً ولا طبّا
ولم تَعلَمْ عليه البيد تدجيلا ولا كذْبا
طبيبٌ جربَ اليابسَ فى الصحراءِ والرَّطْبا
فذقْ قيسُ ولا ترْتبْ بمـا قال وما نَبّا

وتلك الأمُّ ياقيس أطِعْها تطِعِ الربَّا

قيس : زياد اسمعْ وكن عونى وخلِّ اللومَ والعَتبا

إذا ما لم يكن بُدٌّ فانى آكُلُ القلبا

زياد : قيسُ يبغى القلبَ يابلهاء أين القلب أينا ؟

بلهاء : هو عندى ويسيرٌ ما اشتهى قيسٌ علينا

هو فى الشاة

زياد : هُلمِّى أخرجى القلبَ الينا

بلهاء : القلبُ ! أين القلبُ ؟ أين يا تُرى وضَعْتُهُ ؟

يا ويحَ لى ! نسيتُ أنى بيدى نزعتُه !

قيس : وشاةٍ بلا قلبٍ يداوونى بها

وكيف يُداوى القلبَ من لا له قلب !

« تسير بلهاء الى الحى ويظهر صغار من ناحية الحى يلهون فى طائفتين وإذ تقع »
« أبصارهم على قيس وزياد تتغنى كل طائفة بغناء »

« الطائفة الاولى »

قيسُ عُصفورَ البوادى وَهزارَ الرَّبَواتْ

طِرتَ من وادٍ لِوادى وغمرتَ الفلواتْ



« وشاة بلا قلب يداوونني بها وكيف يداوي القلب من لا له قلب »

(صفحة ٣٣)

إيهِ يا شاعرَ نجدِ ... ونجىَّ الظّبيَات
أضمرِ الحبَّ وأبدِ ... لِأعفّ الفتيات

« الطائفة الثانية »

قيسُ كشّفتَ العذارى ... وانتهكتَ الحُرُمات
ودمَغتَ الحىَّ عارا ... فى السنينَ الغابرات
قد ذكرتَ الغَيْل دعوى ... واصطنعتَ الخلوَات
صَلِيَتْ ليلى ببلوى ... منك دون الفتَيات !

« يلتقط قيس بضع حصوات من الارض ويهم أن يحصب بها الصغار ثم يتردد »
« فينثر الحصا من يديه ، بينما يظهر من جانب الطريق الآخر ابن عوف وكاتبه نصيب »
« قيس : مناجيا نفسه »

قيسُ لا ! سامحْ صغارا ... لا يُحسُّون الخطيئه
إنهم فيما أتوْه ... بَبَغاواتٌ بريئه
لقِّنوها كلماتٍ ... نَزِهاتٍ أو بذيئه

« زياد : وهو يصرف الصغار »

إذهبوا عودوا الى آبائكم ... واذكروا قيسا بخير ياخُبُث
إذهبوا أوْحُوا الى أترابكم ... وليُبَلِّغْ حَدَثًا منكم حَدَث

سيطرَ الحبُّ على دنيـــــا كمو

كلُّ شيء ما خلا الحبَّ عَبَثْ

« يجرى الصغار أمام زياد مضطربين ثم يختفون عن الأنظار ، بينما »
« يستلق قيس على الأرض فى شبه اغماء »

ابن عوف : الى نصيب وزياد يطارد الصغار »

انظرْ نُصيْبُ ضجةٌ وصبيةٌ   ورجلٌ يرمى الصغار بالحصا

نصيب . أرى أمــيرى نشَـــــأ تعلقوا

بابن سبيلٍ مُتعَبٍ واهى القُوى

ابن عوف : بل أمضِ سَلْ

نصيب : معترضا زياد »

من الفتى ؟

« زياد : لنفسه وقد رأى ابن عوف »

ماذا أرى ؟   هذا أميرُ الصَّدَقات ههنا

« ثم يرد على نصيب »

قيسُ إمام العاشقــين

ابن عوف :   أيُّهم   فهم كثير، كل قيس بهوى

زياد : أجلْ ولكنّ الذى تُبصِرهُ — أرفعُهم ذكرا وأعلاهم سنى

ابن عوف : لعله قيسُ الذى نعرِفهُ — لقد رَوَيت شعرَه فيمن رَوى

فأين ظله زياد

زياد . أنا ذا — أنا الذى يتبعهُ حيثُ مشى

ابن عوف . أنت الذى تهدى لكلّ قريةٍ

مُجاجةَ النحل ونفحةَ الرُّبا

ما بالُه يطَا الترابَ حافيا — ويقطعُ البيدَ مُمزّقَ الرِّدا

خُذ يا نُصَيْبُ بُردتى فغطِّه — لا يلحقنّه من العُرىِ أذى

زياد . إحفظ عليكَ البُرْدَ ياأميرُ لا — فقرَ اليه بابن سيد الحمى

إن لقيس من ثياب الوشْىِ ما — يَفْنى به العمرُ وما يُعيى البلى

« ابن عوف : مناجيا نفسه »

ياويحَ قلبى ماخلا من قسوةٍ — ما بالُه رَقَّ لقيسٍ ورثى

« يقبل على قيس »

قيسُ بُنىّ

زياد . هو فى إغماءةٍ — من وَجْده وما أظنه صحا

« يسمع صوت حاد من ناحية نجد ، ويتعالى الصوت قليلا قليلا حتى »
« يظهر الحادى ومن ورائه قافلة تسير الى المدينة ثم يذوب الصوت »
« قليلا قليلا حتى ينقطع »

أنشودة الحادى »

يا نجـــدُ خُذْ بالزمامْ ورحّــبِ
سِرْ فى رِكاب الغمامْ ليــثربِ
هــذا الحُسيْنُ الامامْ ابنُ النبى
النورُ فى البيـــد زادْ حتى غَمَرْ
أخْـذُ الحيـافى الوهادْ أحـدُ القمر
أخْذ جَمَـالَ البوادْ زينَ الحضرْ
ابن النبى

ابن عوف : سمعتمو ؟ يا لكِ من رنة حـادٍ مُطرِبِ
زياد . يا ليت شعرى ما الركا ب مَنْ لواء الموْكِبِ
نصيب . قـد بين الحادى فقل أصمٌ أنت أم غـــبى؟
هـــذا إمامُ العرب هـذا الحُسينُ ابنُ النبى
هذا الزكىّ ابنَ الزكىِّ الطيّبُ ابنُ الطيب

عارَضَنا الحسينُ فى طريقه ليثرب
هذا سنا جبينِهِ مِلْءَ الوهاد والرُّبى
قد جلّ حاديه جلا لَ القارىءِ المطرِّب

« ابن عوف هامسا الى نصيب »

نصيبُ صه لا تَسلكنْ بنا مسالكَ التُهَمْ
ولا تَظاهرْ بالهوى لوارث البيت العلَمْ
إحذرْ جواسيسَ ابنِ هندٍ وعيونَ ابن الحَكَمْ
نحن رجالُ دُولةٍ قوّامةٍ على الأمم
ليس بعينها عمًى ولا بأُذْنِها صَمَمْ
تسمع فى ظل القصور همسَ رُعيانِ الغنم

« الى زياد مشيرا الى قيس »

زياد انظرْ فما انفكّ صريعَ الوجدِ والذكرى
كما مرّ بنا الركبُ الحسينىُّ به مرّا
فلم يشغلْ له بالا ولم يوقِظْ له فكرا
زياد . رويدا سيدى مهلا ولا تستغرِب الأمرا



« نصيب صــه لا لـلـكن بنـا مسـالك التهـم ! »

(صحيفة ٣٩)

لقد سقناه بالأمسِ لحجِّ الكعبةَ الغرّا
فلما لمس الركنَ ومسّتْ يدُه السِّترا
وقلنا الآنَ من ليلى ومن فتنتها يبرا
سمعناه ينادى الله من ساحته الكبرى

ابن عوف : وماذا قال !

زياد : ما تابَ من العِشق ولا استبرا
ولكن قال يا ربُّ ملكتَ الخيرَ والشرا
فهاتِ الضرَّ إن كان هوى ليلى هو الضرا
وإن كان هو السحرَ فلا تُبطِلْ لها سحرا
ويارب هَبِ السلوى لغيرى وهبِ الصبرا
وهبْ لى مَوْتةَ المُضنَى بها لا مِيتةً أُخرى

« يقبل على قيس ويميل عليه بحنان »

حنانيك قيسُ إلامَ الذهول !
أفِقْ ساعةً من غواشى الخَبَلْ
صليلُ البغال ورَجْع الحُداءِ
وضجةُ رَكْبٍ وراء الجبَلْ

وحادٍ يســوق رِكَابَ الحسَنْ
يهزُّ الجبالَ إذا ما ارتحلْ
فلم يبقَ ماشٍ ولا راكبٌ على نجدَ الا دعا وابتهَلْ
فقُمْ قيسُ واضرعْ مع الضارعين
وأنزلْ بجدّ الحسينِ الأمل

« يسمع صوت حاد آخر قادما الى نجد من ناحيـة يثرب ، على »
« رأس قافلة اخرى وتمر هذه القافلة كما مرت الأولى »

« أنشودة الحادى »

ـلا هـلا هيّاً * إطوىالفلا طيّاً * وقرّبى الحيّا * للنازح الصَّبِ
لاجلٌ فى البيدْ * شجيةُ الترديدْ * كرنّةِ الغرّيدْ * فىالفنَنِ الرَّطْب
ح أم غنّى * أم للحمى حنّا * جُلَيْجِلٌ رنّا * فى شعَبِ القلب
لا هلا سيرى * وامضى بتيسير * طيرى بنا طيرى * للمـاء والعشب
رىاسبقى الليلا * وأدركى الغيْلا * العهدَ من ليلى * ومَـنزِلَ الحب
ه يا حادى * فتِّشْ بتوْبادِ * فالقلبُ فىالوادى * والعَقلُ فىالشِّعب
قمرا يبدو * مَطلعهُ نجدُ * قد صنع الوجدُ * ما شاء بالركب

« يفيق قيس ثم يتلفت مصغيا الى الحداء »

قيس :

ليلى ! مناد دعا ليلى فخفّ له	نشوانُ فى جنبات الصدر عِربيدُ
ليلى ! انظروا البيدَ هل مادت بآهلها	وهل ترنَّمَ فى المزمار داودُ
ليلى نداءٌ بليلى رنّ فى أذنى	سحرٌ لعمرى له فى السمع ترديدُ
ليلى تَردّدُ فى سمعى وفى خلدى	كما تَردّدُ فى الأيك الأغاريدُ
هل المنادون أهلوها و إخوتُها	أم المنادون عشاقٌ معاميدُ
إن يَشرَكونِى فى ليلى فلا رجَعتْ	جبالُ نجدٍ لهم صوتا ولا البيدُ
أغيرَ ليلاى نادوْا أم بها هتفوا	فداء ليلى الليالى الخُرَّدُ الغيدُ
إذا سمعت اسمَ ليلى ثُبتُ من خَبَلى	وثابَ ماصرَعتْ منى العناقيدُ
كسا النداءَ اسمُها حسنا وحبّبَه	حتى كأن اسمَها البشرى أو العيد
ليلى ! لعلّىَ مجنونٌ يُخيّلُ لى ؟	لا الحىُّ نادوا على ليلى ولا نُودوا

ابن عوف :

لا تكتئبْ وتعالَ ياقيسُ استرحْ	مما تكابد فى الهوى وتلاقى

قيس :

هل أنت آس يا أميرُ جراحتى	أم أنت من سحر الصبابة راق؟

ابن عوف :

بل من رُواتك قيسُ من زمنٍ مضى	لم أخلُ قيسُ عليك من إشفاق

قيس :

قل للخليفة يا بنَ عوفٍ فى غدٍ منذا أباح له دمَ العشاق ؟
هدَرتْ حكومتهُ دمى فتحرَّشتْ بدمٍ على سيف الجفُون مُراق

ابن عوف :

أرَضيتنى عند الخليفة شافعا ؟ يا قيس

قيس : فى أنفه : لا والواحدِ الخلاق

بل عندَ ليلى فامض فاشفع لى لدى ليلى وناشِد قلبها أشواقى
جِئْها فذكِّرْها العهودَ وحفظَها واذكرْ لها عهدى وصِفْ ميثاقى
ليلى إذا هى أقبلتْ حقَنتْ دمى كرما وفكَّتْ يا أميرُ وَثاقى

ابن عوف :

الآنَ قيسُ اذهبْ فبدِّلْ حلةً وتَرَدَّ غيرَ ثيابكَ الأخلاق
فالصبحَ تدخلُ حىَّ ليلى قيسُ فى ركْبى وبين بطانَتى ورفاقى

قيس الى زياد :

أسمِعتَ ماقال الأميرُ ؟ زيادُ، طِرْ نحو الحمى بجناحىْ المشتاق
إذهبْ وسلْ أمى أعزَّ ملابسى من كل شامىٍّ وكلِّ عراقى
واذكرْ لها فضلَ الأمير، ولم تزَلْ نِعَمُ الأمير قلائدَ الأعناق

« يسير زياد نحو الحى بينما يتمسح قيس بابن عوف كالطفل »

شكرا لصُنعكَ يا أميرُ ودُمتَ مَقصودَ الرحابْ

عجّلْ أمير

ابن عوف ضاحكا : بل انتظرْ أنسيتَ يا قيسُ الثيابْ ؟

قيس : مَنْ مُبْلغٌ أمى الحزينةَ أن عقلى اليومَ ثابْ ؟

ومَن البشيرُ اليكِ يا ليلى بقيسٍ فى الركابْ ؟

اليومَ أهــــلا بالحيَاة ومرحباً بكَ يا شـبابْ !

« ســـــتار »

الفصل الثالث

« قطعة من الصحراء تبدو في يسارها طائفة من مضارب بني عامر »
« ممتدة الى ماوراء اليسار على سفح جبل التوباد — خباء مضروب »
« الى يمين هذه الطائفة من المضارب كأنه نهاية خيام الحي — على »
« اليمين أشجار بان يقف في ظلها ابن عوف وحاشيته وقيس »
« وزياد »

ابن عوف: تراءى الحيُّ للركبِ — وأشرفنا على الشِّعبِ
أفِقْ قيسُ أما في رؤ — ية الخيْمات ما يصبي !
ألا تهتِفُ بالشكوى — الى ليلى وبالعتْب

قيس: ديارَ الحي من ليلى — سلامٌ من شجٍ صَب
على الحي على الدار — على ليلى على الحب
غدا الركبُ على طيبٍ — كريح المندَل الرَّطب
فيا ليلى عسى اليوم — أبُلُّ الشوقَ بالقرب
عسى الخِطْبَةُ لا تنزلُ — في ناديك كالخطب
عساهم لا يقولون — فتى مشتركُ اللبِّ

ولا يذهبُ إحسانى | ولا يبقى سوى ذنبى
يقولون بها غىّ | لقد غنّيتُ من كربى
سلى تُربَك كم مَرّغت | خــدّىّ على التُّرب
وكم جُــدتُ علَى الرمل | ولم أبخَلْ على العُشب
بدمعٍ مثل دمعِ الثُّــكلِ | مغروفٍ من القلب

« يتطلع ابن عوف الى ناحية الحى »

ابن عوف: قيسُ انتبهْ قيس

قيس : مَن المنادى !

ابن عوف : الحىُّ فى الســلاح سَدَّ الوادى
وأنت قيسُ بعد حينٍ غاد | على خصوم لُدُدٍ شِـداد
فالقَ الرجالَ صاحىَ الفؤاد | لاتَلْقَهم مُضيّعَ الرشاد

« قيس : متطلعا كذلك »

أتُبصِرُ يابنَ عوفٍ حىّ ليلى | تَدجّج فى السلاح ولا تراها!
فما لى لا أُحقّقُ غيرَ ليلى | وإن كثُرالسوادُ لدى حِماها
لقد أُلقَى هوى ليلى حجابا | على عينى فلستُ أرى سواها
وبغَّضتْ النصيحَ الىّ ليلى | وسدّ مسامعى عنه هواها



« أتبصر يا بن عوف حى ليلى تدجج فى السلاح ولا تراها ؟ »

(صفحة ٤٧)

« يسمع من بعيد ومن ناحية الحى لجب وقعقعة »
« سلاح ويقترب الصوت ويتعالى شيئاً فشيئاً »

أرى حىّ ليلى فى السلاح ولا أرى سلاحا كهجر العامرية ماضيا
دمى اليومَ مهدورٌ لليلى وأهلِها فِداءٌ لليلى مُهدَراتُ دمائيا
لىَ اللهُ! ماذا منكِ ياليلَ طَاف بى وما ذلك الساقى وماذا سقانيا!
دعونى وما عندى لليلى أقولُه لليلى واستنشى الذى عندها ليا
أهيمُ فاستعدى نهارى على الجوى وأقبعُ ليلى أستجيرُ القوافيا
(فما اشرِفُ الأيفَاعَ الا صبابةً ولا أُنشدُ الأشعارَ الا تداويا)
إذا الناسُ شَطرَ البيت ولّوا وجوهَهم تلمستُ ركنىْ بيتها فى صلاتيا
(أُصلّى فما أدرى إذا ما ذكرتُها أثنتَين صلّيتُ الضُّحى أم ثمانيا)
توارتْ وراءَ الجَمْعِ ليلى فخانها فمٌ كابتسام الصبح يأبَى التواريا
وطِيبٌ به خُصّتْ حوى الطيبَ كلَّه فقلْهُ الأقاحى أو فقُلْهُ الفواغيا
فأحسستُ من فرْعى لساقىّ هزَّةً كأن عِياناً منكِ لاقى عيانيا
دعونا وما يبقى إذا ما فنِيتُموا فوالله ماشىءٌ خلا الحبَّ باقيا
مشى الحبُّ فى ليلى وفىّ من الصِّبا ودبّ الهوى فى شاءِ ليلى وشائيا
وإنى وليلى للأواخر فى غدٍ لشُغْلٌ كما كنا شغلنا الأواليا

« يبدو على وجهه الاصفرار والجهد ثم يترنح فيتلقاه »

« زياد — تسمع أصوات الحى من قريب »

ابن عوف :زيادُ أَدركْه أدرِكْ إنى أرى الداءَ عادَهْ
لقد تضاءل قيسٌ واصفرّ مثلَ الجراده !
وليس قيسٌ بملقٍ إلا إليك قِياده
الآن أسعى لقيسٍ سعيا أخافُ فسادَه
فمِلْ بنا وبقيسٍ حتى يصيبَ رشادَه

« يحملون قيسا ويختفون به وراء شجر »
« البان ، وتظهر طلائع الحى من اليسار وعلى »
« رأسها المهدى ومنازل، وكلهم شاكى السلاح »

المهدى :

ياقومُ إن البغىَ شرٌّ مركَبُهْ والخيرُ فى جانب من يُجَنَّبُهْ
هذا ابنُ عوفٍ قد أظلّ موكبُه وإن قيساً فى الرّكاب يصحَبُه
جاء يرومُ صهرَكم ويخطُبُه وقد علِمتمْ كيف ساء مذهبُه
وكيف طال بابنتى تشبُّبُه

صوت : كلّه الى سيوفِنا تؤدِّبُهْ لقد وجدناه وكنا نَرقُبُه

المهدى : لا ، دمُ قيسٍ دمُنا لا نقربُه يكفيه منا أننا نُخيِّبُه

ونَصرِفُ الأميرَ عما يطلبُهُ

صوت آخر: شيخَ الحمى لا تضعفِ ولا تردَّدْ وقفِ

ذُدْ عن عقيلة الحمى وامنعْ حياضَ الشرفِ

لا تُصغِ للشافع فى قيس ولا المستعطِفِ

ليس ابنُ عوفٍ فى الذى سعى له بالمنصفِ

أبالأمير بعد ما أجار قيسا تحتفى !

لاَ تخشَ بأسَه ومن رجاله لا تخفِ

نحن كعثمانَ وليلى بيننا كالمُصحَفِ

« يظهر ابن عوف وحاشيته من وراء الشجر ومعهم زياد »

ابن عوف : عِمْ أبا ليلى صباحا

المهدى : عِمْ صباحاً يابنَ عوفِ

ابن عوف : قل لهم يُلقُوا السلاحا ليس ذا مَوْطِنَ خوفْ

صوت من الحي :

يا بنَ عوفٍ يا أميرْ ليس ذا شأنَ الوُلاةِ

كيف تَحمى وتُجيرْ مُستبيحَ الحرُماتِ ؟

ابن عوف: عامرُ يا أجاودَ البطاحِ وأسمحَ الناس بطون راحِ

مالى وللسيوف والرماحِ ؟ ضيف أتاوما ومن السَّماحِ

رَدكَ وجهَ الضيف بالسلاحِ ماجئتُكم يا قومُ للكفاح

بل جئتُ للتوفيق والإصلاحِ

« تحدث ضجة فى جانب الحى وتصايح وتهامس »

« ثم يلقى كثير منهم السلاح ويغمد السيوف »

صوت من الحى :

يا أبا ليلى بليلى جُدْ لقيسٍ بالحياة

إنه شاعرُ نجدٍ ونَجِىُّ الظَّبَياتِ

صوت آخر: قيسُ أخٌ وابنُ عمٍّ وليس أهلا لذَمّ

نجمٌ أضاء بنجد سما على كل نجم

هبوه جُنّ بليلى ليس الغرام بجُرم

« منازل : حيث يستقبل الجمعين خطيباً »

إن قيساً معشرَ الحى أخٌ وابنُ عمٍ أفمنه تبرأون ؟

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل : أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً شاعرُ البيد الذى لا يُجارَى أفأنتم مُنكِرونْ ؟

أصوات . لا وربِّ البيت

منازل : أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً سيدٌ من عامرٍ وابنُ سادات ، أفيه تمترون ؟

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل : أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً قد بنى المجدَ لكم ولنجدٍ أبقيسٍ تكفرون ؟

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل : أصغُوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً كاملٌ فى عقله أوَ آنستم على قيسَ الجنون ؟

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل : أصغُوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون
أنا لم أعدِلْ بقيسٍ شاعرا لا ولا أنتم بقيس تعدِلون

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل :

أصغُوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون
أنا فى وُدى و إعجابى به لا يدانينى الرواةُ المعجَبون
شعرُه يبقى ويفنى غيرُه ليس كلُّ الشعر ترويه القرون
شعرُ قيس عبقرىٌّ خالدٌ ليتـه لم يتخلَّله المجُون
ولو أن المتجنى شاعرٌ غيرُ قيسٍ أوشك الخطب يهون
رُبَّ شعرٍ قال فى ليلى ، به هتف البدْوُ وضجَّ الحاضرون
إننى أخشى عليـكم عارَه رُبَّ عارٍ ليس تمحوه السّنون
ضجرتْ ليلى وضجّت أمُّها وأبوها وتأذّى الأقربون
وغَدا كلُّ فتى من عامرٍ حين يلقى الناسَ ، محنيَّ الجبين

« أصوات كثيرة »

هو ما قلت

منازل : إذن ما بالُـكم لم تثوروا ، مالـكم لا تغضبون؟
هو ذا قيسٌ مع الوالى أتى يطأُ الحىَّ وأنتم تنظرون
وأبو ليلى امرُؤٌ أدرِى له رِقَّةَ القلب وأخْشى أن يلين

بعدَ حينٍ يعبثُ القومُ بكم ومن الحى بليلى يخرجون

آن يا قومُ لكم أن تعلموا أن قيساً هتك الخدرَ المصون

قيسُ لم يترك لليلى حُرمةً ماالذى أنتم بقيسٍ فاعلون!

صوت : ماجِنٌ لا بدّ من تأديبه

صوت آخر: إن بالسَّوْط يُرَبَّى الماجنون

صوت : نأخذُ الحىَّ عليه

آخر : ولنقفْ دون ليلى وحماها كالحصون

منازل : حلَّل السلطان بالأمس لكم دمَ قيسٍ ما الذى تنتظرون!

صوت : حلَّل السلطان بالأمس لنا دمَه

« أصوات أخرى » إنا بقيسٍ فاتكون

« ضجيج واندفاع »

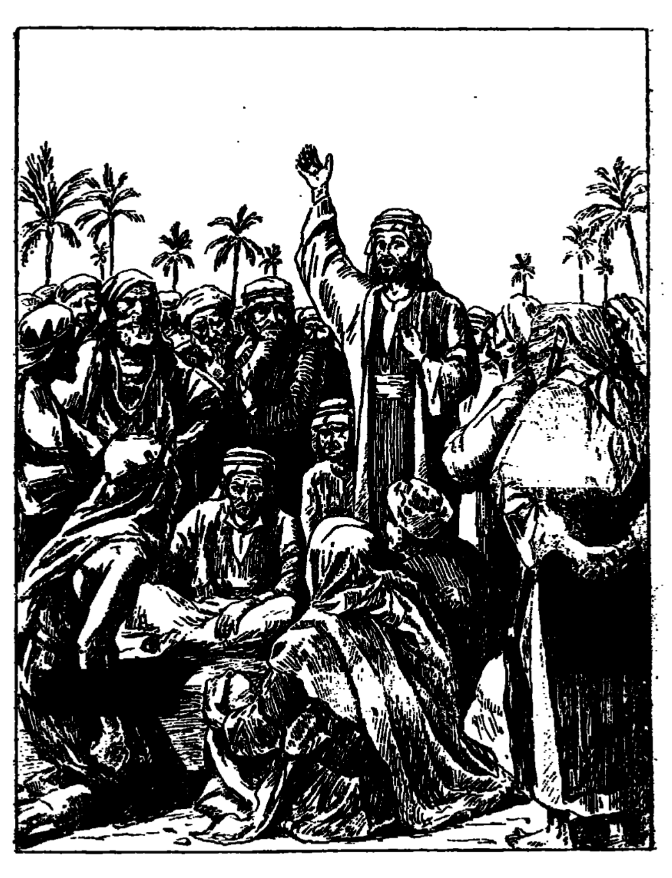
صوت : مُنازِ يابنَ العم ماهذا الخبرْ! رفعتَ قيساً فجعلتَه القمرْ

والآن أغريتَ بقتله الزُّمَرْ كفعل جزار اليهود بالبقر

برّأها من العيوب وعَقَرْ !

« يصعد بشر منبرا للخطابة فيجتمع حوله جماعة من الناس »

قائل : إرجعوا يا قومُ هذا منبرٌ وخطيب



« حلل السلطان بالأمس لكم دم قيس ما الذى تنتظرون ؟ »

(صفحة ٥٥)

يسأل أحدهم: ليت شعرى من يكونْ !

آخر : أو أعمى أنت هذا بشرُ

آخر : هل يحسن الخُطبة بشرٌ و يُبين

« يحاول منازل أن ينسل من الجماهير »

بشر :

قف منازِ اسمع سمعتَ الرعد من جانبىْ صاعقةٍ فيها المَنون
وسمعتَ الذئبَ فى جوْز الفَلا وسمعتَ الليثَ فى جَوف العرين
أخطيبٌ أنت أم خطبٌ و إن لم تَهُن والخطبُ أحيانا يهُون

منازل صائحا: بشر . . .

بشر : قف !

منازل :

مالك يا بشرُ ولى ؟ إن حربَ الأهل والصحب جُنون

بشر :

لِمْ إذن حاربتَ قيساً لم تصن حرمةَ ابن العم أو حقَّ الخَدين؟

منازل : قلتُ بشرُ الحق

بشر : خلِّ الحق ما أنت والله على الحق أمين

إنما أنت لقيسٍ حاسدٌ منطوى الصدر على الحقد المَهين
كلما حدّثتَ عنه عامراً قرأتْ فى وجهك الداء الدفين
ترسِلُ الزفرة تتلو أختَها وتَقُشُّ الصدر من حين لحين
يا مناز يابن عمّى أصغ لى
أنت دونٌ أنت دون أنت دون !

منازل : دعونى
بشر من المنبر : دعونى فلا بدَّ لى
رجل : أناتك لا بد أن أقتله
منازل : دعونى
بشر : دعونى
رجل : دعوه اتركوه
آخر : ومن كتَّفَ النذلَ أو كبّله ؟
منازل : دعونى
رجل : دعوه
آخر : كلا البطلين يقولُ الوعيدَ ولن يفعله

بشر : دعونى

رجل : تقدَّمْ

منازل : دعونى

رجل : انطلق

بشر : دعونىَ

رجل : جئْه

منازل : دعونى

رجل : إمش لهْ

آخر : تنحَّوْا وحلّوا سبيليْهما ولا تخشوْا الوقعةَ المقبلهْ

بشر : منازلُ فى عقله كاملُ

منازل : وعقلك يا بشرُ ما أكملهْ

بشر : أتنزوعلى الحىّ نزْوَ الديوك وتقفزُ كالأكبْش المرسلهْ

وتفلقُ رأسى كرُمانة وأفلقُ رأسك كالحنظله

فماذا يردُّ عليك العويلُ وماذا انتفاعىَ بالولولهْ ؟

زياد : منازلُ كنت كثيرالكلام ووالله ماقلتَ الا الكذبْ

صوت :أتزعمهُ كاذبا يازيادُ وقــــد ذاد عن حُرُمات العربْ ؟

زياد : رويدَك لا تنخدِع يافتى ولاتأخذ الأمرَ دونَ السببْ

فلم يبغِ الا خداعَ الجموع وجلْبَ الظنون وخلْقَ الرِّيبْ

وأثّر فيكم وفى آخرين وأفرغ فيكم سُمومَ الرُّقُبْ

صوت :منازلُ دافعَ عن سُنَّةٍ مُعظّمةٍ من قديم الحِقب

زياد : تأمل منازلُ سُخْطَ الجموع وجهلَك ماذا عليهم جلَبْ!

أجل قد غضبتَ ولـكنما لنفسك ليس لليلى الغضب

تحضُّ على قَتل قيسَ الرجالَ لتحظى بليلى إذا ما ذهب

أصوات:يُريدُ ليحظى بليلى ؟

زياد : نعم !

صوت : تكلمْ

صوت آخر: أبنْ

ثالث : إن هذا عجب !

زياد : ألمْ يَكُ يغشَى النَّدِيَّ ويطلبُ ليلى أشدَّ الطلب؟

« صوت يخاطب المهدى »

إذن كان يخطبُ ليلى؟

المهدى : نعم !

صوت : إذن قد تجنّى

صوت آخر : إذن قد كذب !

زياد : منازلُ قل لهموكم ضرعـ ـت الليلى وكم أعرضتْ لم تُجبْ

صوت : منازلُ اخدعْ وغُشَّ غيرى

آخر : قدجازَ الا علىّ كِذْبُكْ !

ثالث : ما أنتَ إلا جوٍ شقىٌّ تحبُّ ليلى ولا تُحِبُّكْ !

« تحدث ضجة حول منازل ويقف ثلاثة رجال فى ركن قصى من أركان المسرح »
« يتحدثون »

الأول : قد اختلف الحىُّ فى أمر قيسٍ وليـلى فكلٌّ له مذهبُ
وأنت الى أىِّ رأى تميلُ وأىَّ الفريقين تستصوِبُ

الثانى : إذا صدقت نظرتى فى الأمور ولى نظرةٌ قلما تكذِبُ
منـازلُ غادٍ على خيبةٍ وقيسُ على فضله أخْيب
وقد يُخفقان ويلقى النجاحَ غريب له فيكمو مأرب

الاول . غريب ؟

الثـ... . أجل من نواحى ثقيف

الاول : ومن ذاك ؟

الثـاني : وردُ

الاول : وما يطلب !

الثالث : رأيناه فى الحى يمشى الحياءَ — وقيل أتى عامرا يخطُبُ

الاول : وليلى ابنة الشيخ ما رأيُها — أمَامن حسابٍ لها يُحسب؟

الثانى : أراهاو إن لم تَخطَّ الشبابَ — عجوزاً على الرأى لا تُغلَب

تصونُ القديمَ وترعى الرميمَ — وتُعطى التقاليدَ ما توجب

وبالجـــاهلية إعجابُها — إذ قل بالسلف المعجَب

ومن سُنّة البيد نفضُ الأكفّ — من العاشقين اذا شبّبوا

فلا تعجبوا إن جرى حادثٌ — يُحدث عنـه ويُستغرب

وإن رضِيَتْ وردَ بعلا لها — وقيسُ الأحبُّ لها الأقرب

فيا طالمـا التمست مهربا — وأرضُ ثقيفٍ هى المهرب

منازل : بنى عامرٍ لا تُضِيعوا الحُـلومَ — فان الأناة بكم أجملُ

هبوا لىَ آذانكم إننى أجدُّ وصاحبُكم يهزِلُ
خطبتُ وأخطبُ ليلى غدا وما لىَ يا قومُ لا أفعلُ
وقد تُعرِضُ اليومَ ليلى فلا أضيقُ، عسى فى غدٍ تُقبِلُ
فما قيسُ أجدرُ منى بها ولا هو خيرٌ ولا أفضلُ

زياد : إليكَ منازلُ ! لا تتزنْ بقيسٍ قد [illegible] المنزلُ !
ولا يستوى الشاعرُ العبقرىُّ ومن هو من باقلٍ أبقلُ !

منازل : وما أنت ؟ بيّنْ لنا يا زياد

« زياد — ممسكا بذراع منازل »

ستعلم منىّ ما تجهل
هلمّ مُنازِ ، هلمّ الصراعْ ! وودّعْ ضلوعَك وانعَ الذراعْ

منازل : خلِّ زيادُ خلِّ عن ذراعى

زياد : سألتَ ما أنت؟ فأصغِ ، راعِ
إنى انا مُمَزِّقُ الأضلاع !

« ثم يجره من ذراعه ويمضى به الى خارج المسرح »

صوت : ماذا يكون يا ترى ؟

آخر : هيّوا نرى هيوا نرى

« آخر وهم يتدافعون »

زيادُ غيرُ هازل

آخر : نوحوا على منازل

آخر : حمامةٌ وبازي !

آخر : هلكتَ يا منازِ !

آخرمن بعيد : إهرب من البرازِ

« يخلو المسرح الآن الا من المهدى وابن عوف »
« ونصيب ثم تسمع صرخة من وراء الشجر »

مهدى : ما بقيسٍ يابنَ عوف ؟

ابن عوف: انه مغمّى عليه

مهدى : قيسُ لا بأسَ عليك كبِّروا فى اذُنيْه

« صوت من وراء الشجر »

الله أكبر الله أكبر

« ابن عوف لنفسه »

سدًى كبِّروا ماأُذْنُ قيس مفيقةٌ و إن سكبوا فيها أذانَ بِلال
ولكن على ليلى يُفيقُ وشبهها إذا مابدتْ ليلى بشكلِ غزال
و يصحو على ليلى إذا رددّا سمَها وراءَ بُيوتٍ أو وراءَ رِحال

المهدى :

دَمُ الوُدِّ والقُربى وإن كان ظالما — عزيزٌ علينا أن نراه يسيلُ
وإنى لانسانٌ وإنى لوالدٌ — ولى مذهبٌ فى الوالدين جميل
فرفقا بقيس يا أميرُ ونَحِّه — بعيدا لعل الشرَّ عنه يزولُ

ابن عوف :

أناةً أباليلى وحِلما ولا يكنْ — عليك لطغيان الظنون سبيلُ
رددتم ركابى واتهمتم زيارتى — وأجلبَ فِتيانٌ وضجّ كهول
تأملْ تجدْ جَمْعاً مَغيظا وكثرةً — تصولُ وما تدرى علامَ تصول!
رءوسٌ تنزَّى الشرُّ فيها وراءَها — نفوسُ ذئابٍ ما لهنَّ عقول
تَطَلَّبُ أن يُلقى اليها بجُثّةٍ — على غير جوعٍ أو يُساقَ قتيل
نواظرُ ما يأتى به اليومُ من دمٍ — وإن لم يُساورْها صدًى وغليل
نزلتُ فلم أُكرَمْ فهل أنت مُتبعى — وقومُكَ نارَ الطَّرْدِ حين أميل؟
أبَيْتُمْ علىَّ القولَ قبل استماعه — فلم تُنصفوا والمنصفون قليل
فهل لى أبا ليلى بناديكَ وقفةٌ — فان الذى قد جئتُ فيه جليل
وما أنا مَرْءُ السوء أو رجُلُ الأذى — ولكنْ سفيرٌ خيِّرٌ ورسول

ولم أتخذ جاهَ الأمور ذريعةً   ألا إنما جاهُ الأمور يزول

المهدى :

بقيتم بخير يا وُلاةَ أميةٍ   ولا زال يقوى ركنُكم ويطول

« مشيراً الى باب الخباء »

هنا مجلسٌ نأوى اليه لعلنى   أقولُ صوابا أو عساك تقول

وثَمَّ ترى ليلى وتسمعُ قولَها   وليلى لها رأىٌ يُساقُ جميل

فسلْها عسى أن نهتدى ما جوابُها   إباء وردٌّ أو رضى وقبول

« يهم ابن عوف بخلع نعليه »

المهدى : أتخلعُ نعليك؟ لا يابنَ عوف   نَشَدتُك بالله لا تفعلِ

أتمشى الى منزلى حافيا   فديتُك ، من أنا؟ ما منزلى؟

ابن عوف :

خلعتُهما وانتعلتُ الترابَ   الى خَيْمة السيِّد المفضلِ

« نصيب : متدخلا »

دعْه يا مهدىُّ يفعل   إنما يَرمِى لمعنى

كالحسيْنِ بنِ علىٍّ   هو بالعشاقِ يُعنَى

الحسينُ انتعلَ الترب الى والد لبُنَى
فرآه حافيا فى سا حة الدار فجُنّا
قال لا أملِك يابن المصطفى بنتاً ولا ابنا
أنت فى الدار أميرٌ فبما شئتَ فمُرنا

« لنفسه »

يادهر دُرْ بما تشا ويا حوادثُ اهزِلى !
ويا وظيفةُ اعزُبى ويا جرايةُ ارحلى
يبغى ابنُ عوفٍ أن يكو نَ كالحسيْن بن على !

« يدخلان وينادى المهدى : »

هو الضيفُ ياليل هاتِ الرُّطبْ وهاتى الشِّواءَ وهاتى الحَلبْ
وهاتى من الشهد ما يُشتَهى ومن سَمنَة الحىّ ما يُطَّلَبْ
فما هو ضيفٌ ككلّ الضيو فِ ولكن أميرٌ كريمُ الحَسب

« ليلى من وراء حجاب »

أبى ألف لبّيْك !

ابن عوف: لا بل قفى فما بى ظمأٌ ولا بى سغَبْ

وأعلَمُ أن القِرى دِينُكم　　وأن أباكِ جوادُ العربْ

ولكن طعامى

المهدى : ماذا ؟ اقترحْ

ابن عوف: طعامُ الرسول بلوغ الأرَبْ

المهدى : إذن قِفى ليلى اقربى -

« تظهر ليلى من وراء الستر »

تقدّمى ورحّبى

حلّ ابنُ عوفٍ دارَنا

ليلى : أكرمْ به وأحببِ !

قد زارنا الغيثُ فأهلاً بالغمام الصّيّب

ابن عوف: أهلاً بليلى بالجمال　　بالحجى بالأدب

عشتِ وقيساً فلقد　　نوّهتما بالعرب

« ليلى — بين الخجل والغضب »

أتَقرِنُ قيساً بنا يا أميرُ ؟

ابن عوف : ولِمْ لا وقد جئتُ من أجْلِهِ

ومَنْ أنا حتى أضُمَّ القلوبَ　　واعطفَ شكلاً على شكلِهِ
لقد جمعَ الحبُّ رُوحيكما　　وما زالَ يجمعُ فى حبلِهِ

« ليلى : فى استحياء »

أجلْ ياأميرُ عرَفتُ الهوى

ابن عوف :　　فهلاّ عطفْتِ على أهلِهِ ؟

« يلتفت الى المهدى »

أبا العامريةِ قلبُ الفتاةِ　　يقول وينطقُ عن نُبْلِهِ
فأصغِ له وترفّقْ به　　ولا يَسْعَ ظُلمُك فى قتله

المهدى : أأظلم ليلى ؟ معاذَ الحنان !　　متى جار شيخٌ على طفله ؟
هوالحُكْمُ ياليلَ ماتحكمين　　خُذى فى الخطاب وفى فصلِهِ

ليلى : أقيساً تريد ؟

ابن عوف :　　نعم

ليلى :　　إنه　　مُنَى القلب أو مُنتهَى شُغلِهِ
ولكن أترضى حجابى يُذَالُ،　　وتمشى الظنونُ على سدْلِهِ
ويمشى أبى فيغضَّ الجبينَ،　　وينظرُ فى الأرض من ذُلِهِ

يدارى لأجلى فُضولَ الشيوخ، ويقتلُنِي الغمُّ من أجله
يمينا لقيتُ الأمرَّينِ من حماقة قيسٍ ومن جهله
فُضِحتُ به فى شعابِ الحجازِ وفى حَزْنِ نجدٍ وفى سهله
فخذْ قيسُ ياسيدى فى حماك

« فى حياء وإباء »

وألْقِ الأمانَ على رَحْلِهِ
ولا يَفتكِرْ ساعةً بالزواجِ ، ولو كان مَرْوانُ من رُسْلِهِ

ابن عوف:

إذن لن تقبلى قيساً ولن ترضَىْ به بعلا
إذن أخفق مسعاىَ وخاب القصدُ ياليلى

ليلى : على أنك مشكورٌ ولا أنسى لك الفضلا
وأوصيكَ بقيسَ الخـيرَ لا زلتَ له أهلا
لقد يُعوِزُه حامٍ فكُنْهُ أيها المولى

« تلتفت الى أبيها وكأنما تحاول »
« أن تحبس فى عينها دموعا »

أبى كان وردٌ ههنا منذ ساعةٍ ففيم أتى ؟ ما يبتغى ؟

المهدى : جاء يخطُب

ابن‌عوف: ومن وردُ ياليلى وهل تعرفينه ؟

ليـلى : فتى من ثقيفٍ خالصُ القلبِ طيّبُ
أتى خاطباً بعد افتضاحى بغيره وعارى،أهذا يابن عوفٍ يُخيَّبُ؟

أبى : أين وردُ الآن ؟

المهدى : عند قرابةٍ من الحىّ ضموّهُ اليهم ورحّبوا
فان شئتِ أرسلنا اليه

ليـلى : إبعَثْ ادْعُهُ وجِئنابقاضى نجدٍ اليومَ يكتُب

ابن عوف :
تجاوزت ليـلى غايةَ السُخْط فاذكرى
عواقبَ رأى قد رأيتِ سخيفِ

ليلى متهكمة :
أكنتُ ابنَ عوف غيرَ أنثى ضعيفةٍ
تنـاهتْ لرأى فى الأمور ضعيف

ابن عوف :

أرى وقفتى ياليلَ كانت شريفةً ولكنْ جزائى كان غيرَ شريفِ

ليلى :

أنظِّفُ ثوبى يا أميرُ فطالما ظهرتُ به فى الحىِّ غيرَ نظيف

ابن عوف :

لئن كنتِ ياليلى بوردٍ قريرةً فانى على قيسٍ لِجدُّ أسيف

« ثم يخاطب أباها »

الآن بحفظ الله يا سيدَ الحمى لقد طال لُبثى عندكم ووقوفى

ووُفِّقت يا ليلى

ليلى :

لقد كنتَ سيدى حليفالقيس،هل تكونُ حليفى!

ابن عوف :

سألتِ مُحالاً إنما جئتُ خاطباً لورد القوافى لا لورد ثَقيف!

« يخرج من باب الخباء ويشيعه »
« المهدى الى ما وراء شجر البان »

ليلى :

ربَّاهُ ماذا قلتُ ! ماذا كان مِن شأن الأمير الارْيَحِىِّ وشانى ؟

فى موقفٍ كان ابنُ عوفٍ مُحسناً   فيه وكنت قليلةَ الاحسان

فزعمتُ قيساً نالنى بمَساءةٍ   ورمى حجابى أو أذال صيانى

والنفسُ تعلَمُ أن قيساً قد بنى   مجدى وقيسٌ للمكارم بان

لولا قصائده التى نوّهن بى   فى البيد ما علمَ الزمان مكانى

نجدٌ غداً يُطوَى ويفنىَ أهله   وقصيد قيسٍ فىّ ليس بفان

ما لى غضِبْتُ فضاع أمرى من يدى

والأمرُ يخرجُ من يد الغضبان

قالوا انظرى ما تحكمين فليتنى   أبصرتُ رشدى أوملكتُ عِنانى

ما زلتُ أهذِى بالوساوس ساعةً   حتى قتلت اثنين بالهذيان

وكأننى مأمورةٌ وكأنما   قد كان شيطانٌ يقودُ لسانى

قدّرتُ أشياء وقدّر غيرها   حظٌّ يخُطُّ مصايرَ الأنسان

« ستـــار »

*

الفصل الرابع

المنظر الأول

« حول ديار بنى ثقيف ، فى قرية من قرى الجن ، حيث اجتمعت »
« طائفة منهم للحفاوة بقيس وهو يهيم على وجهه ضالا فى الفلوات ، »
« وبينهم شاب منهم فى شكل إنسى جميل الثياب يتردى الحرير »
« من فرعه الى قدمه ، وعلى رأسه عقالان من الحرير المحلى »
« بالذهب، هو الأموى شيطان قيس ــ الجميع ينشدون ويرقصون »

« نشيد الجن »

هذا الأصيلُ كالذَّهبْ يسيلُ بالمرأى عجبْ
على الوهادِ والكُثُبْ

لرقصُ يبعثُ الطربْ هلمَّ يا جنَّ العربْ
هلمَّ رقصةَ اللهَبْ إذا مشىَ على الحطبْ
نحن بنو جهنَّما نغلِى كما تغلى دَمَا
نثور فى الأرضِ كما ثارَ أبونا فى السما
نحن بنو لجبارِ العلَم المنارِ

إبليسَ بِكرِ النـــار ... يا عزَّ من لهُ انتمى
نحن الرُّعُودُ القاصفـهْ ... نحن الرياحُ العاصفـه
والظلمـــاتُ الزاحِفَه ... عرمرَماً عرمرَماً
لنـا وما لنا صُـوَرْ ... نرى ونسـمَعُ البشر
ولا يَرَوْنَ من حضَرَ ... منـا ومن تكلما
نقـول حينَ نصطـدمْ ... بسـادةٍ أو بخَدَم
صمم صمم صمم صمم ... عمًى عمًى عمًى عمَى

هيـد : فيمَ اجتمعنْـا هَهنا ؟ ... يا عضْرَفُوتُ ما الخبر ؟
عضرفوت :لا أدرِ . . . تلك ضجةٌ ... حضرتُهـا فيمن حضَرْ
فسلْ أخاك عَسَراَ

هيـد : ... ماذا هنـاك يا عسَرْ ؟
عسر : نحن مسوقونَ الى ... ما ليسَ ندرِى كالبقرْ
الاموى : بنى الجنّ فى أرضكم عابرٌ ... من الإنس يرسُفُ فى ضُرِّه
فقـالوا به واعـلموا أنه ... فتًى نبَّه الشِّعرُ من قدرِه
هيد : وأينَ تُرَى هــــو ؟

آخر : ما ذا يكون

الاموى : وماذا يهمك من أمره

ألم تعلموا أن لى صاحبا من الانس أحكُمُ فى شعره

هبيد : أجل أنت تُوحى له ما يقولُ وتقذفُ ما شئت فى فكرِه

الاموى :

إذن فاعلموا أنه عاشق تَمَلَّأَتْ البيدُ من ذكره

عاصف: وأعلم أن الهوى واحد حوى المستهامين فى أسْره

وأن التى سحرت قلبه مدلّهةُ القلب من سحره

الاموى :

وانى لأكفُلُ ليلى له وأصرِفُها عن هوى غيرِه

سَهِرْتُ على طُهر ليلى الزمانَ ولم أغمِض العينَ عن طُهرِه

صرَفتُ عن الحب حتى الزواجَ وما قدَّسَ اللهُ من سِره

ولو أنَّ عينى تَشقُّ القبُورَ سهِرتُ على الحبِّ فى قبر !

عضرفوت :

ومن يكون

الاموى :

قيس

عضرفوت: من قيس ؟

عاصف : وهل يخفى القمرْ !

الشاعرُ الذى سحر والساحر الذى شَعَر

حَنْجَرةٌ لنـــا وترْ منهـا وللأنس وتر

هبيد : وما لنا يا عضرفوتُ ولِفتيانِ البشرْ ؟

وما لِقينـا منهمو ومن أبيهم غيرَ شر؟

عضرفوت : بنى الجنِّ اسمعوا أبِـكم زكامٌ

جنى : ولِمْ ؟

عضرفوت : تَذَنَّتْ لعمركُمو الجواء

آخر : وما فى الجو ؟

عضرفوت : ريحٌ آدمىٌّ

ففيه نَتانةٌ وله ذَكاء

إذا البشرىُّ مرَّ علىّ يوماً فقد مرّت علىّ الخُنْفَساء

جنى : أجل بعداوةِ البَشَرِ أبتُلينا وطال بها التبرّمُ والعَناء
مضى بالكبر إبليسٌ أبونا وكلٌّ تراثِ آدمَ كبرياء
يَعيب رجالُهم فيقال عبنا وتَدْفِنُ عارَهَا فينا النساء
وان عَجِزَ المطببُ قال داءٌ من الجنّى ليس له دواء
وان قَفَزَت صغارهمو فزلّت فمنا معشرَ الجنِّ البلاء
وخِفنا من أذاهم فاحتجبنا فما عصم الحجاب ولا الخفاء
وكم متعوذٍ بالله منا تعوذ الأرضُ منه والسماء!

عضرفوت: وقد نشكو من الناس التجني ونسى ما جناه الأنبياء

جنى : أَرُسْلُ الله أيضاً من عِدانا

عضرفوت: أجل هم فى عداوتنا سَواء
بنى فخماً سليمانٌ وضخماً ولولا الجنُّ ما نهضَ البناء
بنينا تدمرَ الكبرى بأيدٍ فهل تدرونَ ما كان الجزاء؟

جنى : وما كان الجزاء ؟

آخرون : أينْ !

عضرفوت : عذابٌ

وسجن ما لمدّته انقضاء !

فتحتَ الماء

جنى : تحتَ الماء ؟

عضرفوت: عانٍ

عليه طلاسم وعليه ماء !

وفى جوف القماقم لو علمتم

آخرون : وما ذا فى القماقم ؟

عضرفوت: أبرياء !

جنى : ومن ذا زجَّهُم فيها ؟

عضرفوت: أميرٌ

علينـــا لا يُردّ له قضــاء

نبىٌّ فهو عدلٌ حيثُ يَقضِى ومَلْكُ فهو يفعلُ مايشاء !

عاصف : قيس يا قومُ منــكمو ليس قيسٌ من البشر

جنى : قيس منا وإنمــا فى بنى عامرٍ ظهر

آخر : إننى قــد رأيتهُ يتفلّى على الشجر

ثالث : وسمِعناهُ قـد عوى عَوَّةَ الجنِّ واستتر

رابع : أنا أيضاً رأيتـــه رِكبَ الظبيَ فى السفر

عاصف ــ متطلعا : تعالَوْا فانظروا

« يتطلع الجميع الى حيث ينظر »

جنى : ماذا ؟

آخر : عجيبٌ

عضرفوت : نرى شبَحاً يُدحرِجُه الفضاء

أقيسٌ ذا ؟

عاصف : نعم هو فاستعدوا فقد وجب التحفزُ واللقاء

« هبيد جِنى آخر »

تأمّلْ قيساً المضنى تجدْه من الذَّوبان أصبح كالخيالِ

الآخر : لقد ضلَّ الطريقَ أما تراهُ يُصفِّق باليمين وبالشّمال ؟

وقد قلَبَ الثيابَ عليه نهْجاً على عاداتِهم عند الضلال

« يظهر قيس فيلتفون حوله وينشدون »

سـلامٌ مَلِكَ الحبِّ وسلطانَ المُحبينـا

وأهــلا وعلى الرحبِ لقــد شُرِّفَ وادينــا
أتى الجنُّ من الوادى يُحيّــونَك بالورد
حدا ركبَهم الحـــــادى الى ناديك من بُعْدِ

« يتلفت قيس ذات اليمين وذات الشمال »

رَبِّ الى أين انتهت بىَ السُّرى وأىَّ وادٍ أنزلَتنى يا تُرى
عساىَ فى الشامِ، لعلّى جُزْتُه أو أنا بالطائف أو أين أنا ؟
وهذه المُسوخُ حولى جِنّةٌ أم عمَلُ الوهمِ وتهويلُ الكَرى
لا ، أنا صاحٍ

« يتحسس جسمه »

هــذه رجلِى وذِى يدى وتلك مُقلتى يقظَى ترَى
ولِمَ لا أُومِنُ بالجن وأنْ تكون للجنّة كالناسِ قُرى؟
لا أدّعى معرفةً بعــالمٍ ظاهرُه أكثر منه ما اختفى

« يمسح جبينه ويعيد النظر والتطلع »

تلك منَ الجنِّ لعَمرى شِرذِمَةْ وهــذه خيلهمو المُسوَّمَــهْ
نعامة كالفرَس المُطهَّمَةْ وأرنبٌ مُسْرَجَةٌ ومُلجَمه
وقُنفُذٌ وظَبيةٌ وشَيْهمَه

يا عجبا كلَّ العجبْ ! الجنُّ منى عن كَثَبْ
سودٌ دقاقٌ فى العيون كالدُّخانِ فى الحطب
يخرجُ من أفواهها ومن عيونها اللهب
من كل مَن جال بقَرْ نيه وصال بالذَنب

الجان : نبِىَّ الحبَّ لا تَخشَ أذًى أو شِرَّةً منا
عَطفْتَ الطيرَ والوحشا فلِمَ لا تعطِفُ الجنا ؟
وسَلْ حسّان والأعشى وشيطانيْهما عنا

الاموى :

تركتُ ورائى الشامَ لم أنتفعْ به ولا هو من شوقى القديم شفانى
وعدتُ الى نجدٍ أقاسى صبابتى ووجدى كأنى ما برِحتُ مكانى
تركتُك ليلى فانفجرتِ لياليا مؤلفةَ الأشكالِ جِدّ حِسان
فلم يَخْلُ سيْرى منك يوماً ولا السُرى
ولم يخلُ من تمثالِك القمران
على كل أرض من هواكِ سوارحٌ ملأْنَ سبيلى أو مَلكن عِنانى
(وأجهشتُ للتوْباد حين رأيتُه وكبّر للرحمنِ حين رآنى)



« نبي الحب لا تخش أذًى أو شرة منا »

(صفحة ٨٢)

(وأذريْتُ دمعَ العين لما عرَفْتُه ونادى بأعلى صوتِه فدعانى)

« يدنو منه قيس ويتأمله »

قيس : لنفسه : يا ويح عينى ما ترى ؟ وويحَ اذْنى ما تَعى !

وأين عقلى ؟ غاب عنى اليومَ أو عقلى معى ؟

الشعر لى مُذ قلتهُ من شفتى لم يُسمعَ

من ذا الذى أوْحَى به لذا الغلامِ المُدَّعى ؟

« يقترب من الشاب ويأخذ فى انتقاده »

عقالان يَمانيّانِ مِنْ وَشْى وعِقيانِ

يُضيئان كلَمْحِ الشمس فى جلدةِ ثعبان

وأين الشفقُ الأحمرُ من مِطْرَفِكَ القانى ؟

وقد تقرُب فى الروْعةِ من أملاك غسّان

وقد تبلغُ فى الشعر الى رقةِ حسّان

فما شأنك يا هذا ؟

الاموى : وما يَعنيكَ مِن شأنى ؟

قيس : أرى سارقَ أشعار جريئاً ما له ثانِ

فقــد يُسطَى على بيتٍ　　وقد يُسرَق بيتان
ولا يَنتحِل الإنسان　　أبيـــــاتاً لإنسان
وما أنشَدْتَ من شــعرٍ　　فمن صنعى وإحسـانى
ولم أهتفْ به بعــدُ　　ولم تَسمعه اذْنان
فَمن أنت ومِن أين　　أتتْ اذنيك ألحـانى ؟

الاموى : أنا الملقى عليـك الشعــــــرَ مِن آنٍ الى آن
أنا الهاجس والشيطان

قيس : لا ، لا ، لستَ شيْطانى

« ثم يناجى نفسه »

أجلْ سمِعتُ باسمِ شيـــــطانى ولـكن لم أرَهْ
أبى وأمى حــدّثا　　نى فى الليالى خبرَهْ

« يعود الى خطاب الأموى مترددا »

ألستَ أنت الأمويّ ؟

الاموى : لا تخَفْ أن تذكرَه

قيس : ما أنت إلا صــورةٌ　　فى عصبى مُصــوَّره

وعبثٌ لو كان عقـــلى حاضراً لأنكره

« قيس ـ وهو ينكت الارض بعود »

ويحى أقيسٌ واحد أم نحن قيسان هنا ؟
وأينا الشاعر هذا الأمــوىُّ أم أنا ؟
أم الذى بى وبه من عَبَثِ السحر بنا ؟
أم أنا مجنون علَـــىّ حبُّ ليلى قد جنى

الاموى : قيسْ

قيس : لبيكَ قيس

الاموى : ما أنا قيس

قيس : من إذَن ؟

الاموى : قلتُ إنَّنِي شيطانُهُ

قيس : قيس من آدمٍ فما أنت منه

الاموى : أنا من قيس عامرٍ وجدانُهُ

قيس : أنت وجدانى؟ إستعذتُ بربى منك

الاموى : لا تستعذ به جلّ شأنُهُ !

هكذا شاء: كلُّ شاعر قومٍ عبقريُّ اللسان نحن لسانه

« قيس مشيحاً بوجهه ومطرقاً »

يا عجبا أصبحَ بالجنِّ لساني يعمرُ !
وصرتُ ينهَى ماردٌ على فمي ويأمرُ
ما للساني لا يطولُ ؟ ما له لا يقصرُ ؟
يا ليت شعري كيف لا يخرُجُ منه الشرَرُ ؟

« الأموى ـ واضعا يده على كتف قيس »

عـلامَ قيس فيم أنـت مُطرقٌ مفكِّرٌ ؟
في خبري ؟

قيس : أجل وما صدقتَ فيما تُخبرُ
ليس لساني مارداً إن لساني بشَرُ

الاموى : قل وحدك الشعرَ إذنْ !

قيس : تظنني لا أقدِرُ ؟

الاموى : جرِّبْ إذَن قلْ أرنا يا قيسُ كيف تَشْعُرُ !

قيس : وما تُحبُّ ؟

الاموى :

قريةُ الجنِ وهـــذا المنظرُ

أليس فيها أنت راءٍ قيسُ ما يؤثِّر ؟

قيس : إسمع إذن يا أمويُّ !

الاموى : إنى أنتظر

قيس : وجوهٌ تصوّرُ ، وفضاءٌ يزهرُ ، ورمال فى مطارح البصر تزخرُ !

وقريةٌ تموجُ بالجنِّ كأنها عبقرُ !

« الأموى ضاحكا »

قه قه ! تعالَوْا واضحكوا !

« تضحك جماعة من الجن »

قيس فى غضب : قه قه . . أمنِّى تسخرُ ؟

الاموى: ما هكذا ياشاعر الـــبيدِ البيوتُ تُكسرُ

جنىآخر : إنك لا تَنظِـمُ يا قيس ولـكنْ تنثرُ !

الاموى: ما لك قيسُ مُفحَماً هـذا لعمرى الحَسَرُ !

لا يُفحَم الشاعرُ لكن يُفحِم الشُّوَيْعِرُ
مالكَ كالعُودِ الذى أدبرَ عنه الوترُ ؟
ما للقوافى الآنساتِ منكَ قيسُ تنفرُ ؟
كيف ترى لسانَك الآن

قيس : عليه حجرُ !
أنتَ على مشاعرى وشعرىَ المسيْطِرُ !
إن غبت غاب خاطرى وإن حضرتَ يحضرُ

الاموى : الآن لا تُنكرُنى قيس وكنت تُنكِر !
عجبْتَ كيف تختفى الجنُّ وكيف تظهرُ
يا قيسُ هذا عالمٌ طِينتُه التجبُّرُ
تطغَى على رائدها صحْراؤه وتغمرُ
وغاية المُعْرِنِ فى نظامِهِ التحيّرُ
مهما علِمت عنه فالذى جهلْتَ أكثرُ !

قيس : يا أخَا الجنّ لئن كنتَ أخاً لى وخليلاً
أنا فى أعماءِ أرض لا أرى فيها السبيلا

الاموى : أين تبغى قيس ؟

قيس : ليلى كن الى ليلى الدليلا

الاموى :

مل يميناً يا أبا المهـــدىّ ثم امش قليلا

تجـد المنزلَ والمـــا ء الذى يشفى العليلا

« ينطلق قيس آخذاً يمينه مهرولا »

المنظر الثانى

« فى حى بنى ثقيف بالطائف حيث ترى دار ورد على بعد قليل —
« ورد مضطجع على الرمل وبجانبه يجلس رفيق من رفاقه — يقترب قيس »

قيس : إن قلبى لمخـــبرى أن هاتيـكَ دارُها

أنا بالطـائف الذى قـرّ فيـــه قرارها

فى ثقيف تنقـلى وثقيف ديارهـــا

ما لساقى جَرَرْتُهـــا فتعـــالى انجـرارُها

ولقلبى يقـــول لى قد تدانى مزارُها

كيف لا أهتـدى لليـــلى وفى القلب نارها

لَيت ليلايَ نُبِّئتْ أننى اليومَ جارها

« يتبين وردا وصاحبه »

عجبٌ !هُديت الدارَ بعد ضلالة ما كان شيطانى علىّ كذوبا
هذى منازلُها وذلك بعلُها بعثَتْ الىّ ديارُ ليلى الطّيبا
هذا غريمى وردُ أشقرَ كاسمه اتراه أُلبس جلدَه مقلوبا !
ما بالهُ افترش الأديم كأنه بغلٌ يُعفّر فى التراب جنوبا !

« رفيق ورد »

ورد أرى من المدَى القريبِ شخصاً يدبُّ نحونا كالذيب
على خُطاه خَشيةُ المُريبِ

ورد : لِمْ لا تقولُ حَيْرةَ الغريب
لعله ابنُ سبيل يمرُّ بالحى مرّا
إنى أراه سقيما يجرُّ ساقيْه جرا

« ينهض من رقدته قلقاً »

الرفيق: عرفتَ مَن هو ؟

ورد : قيسٌ به الغـرامُ أضرّا

الرفيق: قيس؟

ورد :أجل

الرفيق: كيف أفضى اليك ؟ كيف تجرا

ورد : دعنى وقيساً وشأنى لعل فى الأمر سرا

« ينصرف الرجل ويتلاقى ورد وقيس »

قيس : أهذا أنت وردَ بنى ثَقيفٍ ؟

ورد : نعم والوردُ ينبتُ فى رباها

قيس : ولِمْ سُمِّيتَ وردا لم تُلَقَّبْ بقُلّامِ العشيرة أو غَضاها !

« ورد — فى سكون وحلم »

وما ضرّ الورودَ وما عليها ؟ إذا المزكومُ لم يَطعَمْ شذاها

قيس : (بربِّك هل ضممْتَ إليك ليلى قُبَيْلَ الصبح أو قَبلتَ فاها؟)

(وهل رفّتْ عليك قرونُ ليلى رفيفَ الأُقحُوانةِ فى نداها؟)

« ورد — بعد فترة سكون »

نعم ولا ياقيس

قيس : بل لا بدَّ من لا أو نعمْ

ورد : هبْها نعمْ يا قيسُ هل مع الحلال من تُهَمْ ؟
المرْءُ لا يُسأل : هل قبّلَ أهله ؟ وكمْ ؟
أجل لقد قبّلتُها من رأسها الى القدم

قيس غاضباً:

تلك لعمرى قُبلةُ الحُمّى بلاءٌ وسقمْ !
أو قُبلةُ الذئبِ إذا الذئبُ على الشاة جثمْ

« يتراجع قليلا وكأنما يحدث نفسه »

قلبى يقول لىَ : لا ! يا صِدْقَهُ فيما زعم !

ورد : إذن تعالَ قيسُ واسمعْ فى أناةٍ وكرمْ
لا تجعلنّ الغضبَ الجائرَ بيننا الحكَمْ
إسمع حديثى إنه ما خطَّ مثلَه القلم
وسِرُّه لا الأهلُ يدرون به ولا الخدَم
أنا الذى ظُلمتُ قيس ما أنا الذى ظلَمْ
أليّةً وما علىّ لك يا قيس قسَمْ
كم مرّتِ الليلةُ بى والليلتان لم أنم
منذُ حوت دارىَ ليلى ما خلوْتُ من ندَم

كانت إطافتى بها كالوثنىّ بالصَّنم
وربما جئتُ فِرا شها فخانتنى القدم
كأنهـا لى مَحْرَمٌ وليس بيننا رَحِم
شعرُكَ يا قيسُ جنى علىّ هـذا واجترَم
هيّبَهـا فامتنعتْ كأنها صيدُ الحرَمْ
وهبتُها للحبّ والشـعرِ وقيسٍ والألم

قيس : ولكن تعالَ سَرىّ ثقيف أبنْ لىَ ما لم تُبيّنْ تعالَ
تقولُ لقِيتَ بشعرى الشقاء وجرّ عليك بيانى الوبالا
لقـد قلتَ قولا فأوْجزته فبالله إلا شرحت المقالا

ورد : إذن . أصغِ قيس

قيس : قل الصدقَ وردُ

ورد : وهل كان لى الصدقُ إلا خلالا
فلولاكَ ما اخترتُ الا ثقيفاً ولم ألق للعامريّات بالا
ذهبتُ بشعركَ منذ الشبابِ اغنّى القِصار وأروى الطِّوالا
أرى بين ألفاظِه ظِلَّ ليلى وألمحُ بين القوافى الخيالا

فلما رُدِدْتَ وقيل القصائد ... والعشقُ بين المحبَّيْن حالا
خرجتُ الى حيِّها خاطبا ... ولم أدَّخِرْ دون مسعايَ مالا
بنيْتُ بها فتهيبتُهـــا ... وأيُّ امرئٍ هاب قبلي الحلالا
فشعرُك ياقيسُ أصلُ البلاء ... لقيتُ به و بليلى الضلالا
كساها جمـالا فعلَّقتُهـا ... فلما التقينا كساها جلالا
إذا جئْتُها لأنالَ الحقوقَ ... نهتْني قداستُها أن أنالا
أمْسِكْ أبا المهدى !

« يستحيل كلامه الى همس ، اذ تبدو ليلى على باب الخباء »

أنظُرْ هذه ... ليلى علينا طلعتْ من الخِبا

« ثم ينادى بصوت متهدج »

ليلى تعالىْ أسرعى قيسٌ أتى ... ليلى هنالكِ ، مَنْ تحيِّين هنا

قيس : أمازحٌ ياوردُ قل لى أنت أم ... تَسخَرُ منى أم تُرَى تهزَا بنا؟

ورد : بل قلتُ جدًّا لم أقل مُهازلا

« قيس ــ هاما بالذهاب اليها »

إذن فدعْها لاتُجشِّمْها الخُطا

« ورد ــ وليلى تقترب »

إسمعْ أباالمهدىّ همسَ خطوها كأنه وَطْء الغزال فى الحصا
دعوتُ فاهتمّتْ ولولم أدْعُها لوَجَدتْ ريحكَ من أقصى مدى
قيسُ تثبّتْ واستعدّ، هى ذى أنتَ، فلا يذهبْ بلُبِّك اللقا
الآن أمضى لسبيلى

قيس : بل أقِمْ إلبثْ أعِنِّى، إننى خُرتُ قُوَى
ورد : قيسُ أرى الموْقف لا يجمعُنا أنت حبيبُ القلب، والزوجُ أنا
يا لكما منى ويا لى منكما ! نحن الثلاثةَ ارتطمنا بالقضا

« ينصرف وتقبل ليلى على قيس »

قيس : ليلاى ، ليلى القلب

ليلى : قيس مالى دارتْ بىَ الأرضُ وساء حالى؟
قيس : فداكِ ليلى مهجتى ومالى من السَّقام ومن الهزالِ
تعالىْ أشكى لى النوى تعالِى ألقى ذراعيك على خيالِ

« تصافحه بشوق »

ليلى : أحق حبيبَ القلب انت بجانبى أحلمٌ سرى أم نحن منتبهان ؟
أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ بأرض ثقيفٍ نحن مغتربان؟

قيس : حنانيكِ ليلى ، ما لِخلٍّ وخِلِّه   من الأرض الا حيث يجتمعان

فكلُّ بلادٍ قرّبت منكِ منزلى   وكلُّ مكانٍ أنتِ فيه مكانى

ليلى : فمالى أرى خدّيكَ بالدمع بُلِّلا   أمِنْ فرَحٍ عيناكَ تبتدران

قيس : فداؤكِ ليلى الروحُ من شرِّ حادثٍ

رماكِ بهــذا السُّمِّ والذَّوَبان

ليلى : ترانى إذن مهزولةً قيس؟ حبّذا   هُزالى ومَن كان الهزالَ كسانى

قيس : هو الفكرُ ليلى ، فيمن الفكر ؟

ليلى : في الذى تجنّى

قيس : كفانى ما لقيتُ كفانى

ليلى : أأدركتَ أن السهم يا قيسُ واحدٌ

وأنّا كلينا للهوى هدفان ؟

كلانا قيسُ مَذبوحٌ   قتيلُ الأبِ والأمِّ

طعينان بسكّينٍ   من العادة والوهم

لقد زُوِّجتُ ممّن لم   يكن ذوقى ولا طَعْمِى

ومن يكبُرُ عن سنّى   ومن يصغُرُ عن علمى

غريبٌ لا من الحيِّ ولا من وَلد العـــمِّ
ولا ثروتُهُ تربِى على مال أبي الجَـــمّ
فنحن اليومَ فى بيت على ضِدَّيْن مُنضمِّ
هو السجنُ وقد لا يـــنطوى السجنُ على ظلم
هو القبرُ حوى مَيْتَـــين جاريْن على الرّغم
شتيتين وإن لم يَبــعُدِ العَظْمُ من العَظم
فان القرب بالرُّوح وليس القربُ بالجسم

قيس :

تعالىْ نَعِشْ ياليلَ فى ظل قَفْرَةٍ — من البيد لم تُنقَلْ بها قدمان
تعالىْ الى وادٍ خَلِىٍّ وجَدْولٍ — ورنّةِ عُصفورٍ وأيْكَةِ بان
تعالىْ الى ذكرى الصِّبا وجنونه — وأحلام عيشٍ منْ دَدٍ وأمان
فكم قُبلة ياليلَ فى مَيْعة الصِّبا — وقبلَ الهوى ليست بذات معان
أخذْنا وأعطيْنا إذ البَهْمُ ترتعى — و إذ نحن خلف البَهْم مستتران
ولم نكُ ندرى يومَ ذلك ما الهوى — ولا ما يعودُ القلبَ من خفقان
مُنَى النفس ليلى قرّبى فاكِ من فمى — كما لفّ منقاريْـهما غرِدان

نَذُقْ قُبلةً لا يعرِفُ البؤسَ بعدها ولا السقْمَ رُوحانا ولا الجسدان

فكلٌّ نعيم فى الحياة وغبطة على شفتينـــــا حين تلتقيان

ويخفُقُ صدرانا خفوقا كأنما مع القلب قلب فى الجوانح ثان

« تنفر ليلى »

ليلى : وكيف ؟

قيس : ولِمْ لا ؟

ليلى : لستَ ياقيسُ فاعلا ولا لى بما تدعو اليه يدان

قيس : أتعصينني ياليلَ ؟

ليلى : لم أعصِ آمرى ولكنّ صوتاً فى الضمير نهانى

* * *

ووردُ ياقيس؟ وردٌ ماحفَلتَ به لقد ذَهلتَ فلم تجعلْ له شانا

« قيس : غاضبا »

تَعنين زوجكِ ياليلى

« ليلى : منكسة رأسها »

نعم

قيس : ومتى أحببْتِ وردا؟ترَى أحببته الآنا!

ليلى : فيمَ انفجارُك ؟

قيس : من كيدٍ فُجِئْتُ به

ليلى : إنى أراك أبا المهدى غيرانا

وردٌ هو الزوجُ ، فاعلمْ قيسُ أن له حقاً علىّ أؤدّيه وسلطانا

قيس : إذن تحابيتما ؟

ليلى : بل أنت تظلمنى فما أحبَّ سواك القلبُ إنسانا

ولستُ بارحةً من داره أبدا حتى يُسرِّحَنى فضلا و إحسانا

نحن الحرائرَ إن مال الزمانُ بنا لم نشكُ الا إلى الرحمن بلوانا

قيس : بل تذهبين معى !

ليلى : لا ، لا أخونُ له عهداً،فما حادعن عهدى ولا خانا

فتىً كنبعِ الصفا لم يختلفْ خلُقاً ولا تلوّنَ كالفتيان ألوانا

« قيس : متهكماً »

أراكِ فى حبِّ وردٍ جِدَّ صادقةٍ وكان حبُّكِ لى زوراً و بهتانا

ليلى : قيس !

« قيس : صارخا »

أتركيني بلادُ الله واسعةٌ ! غداً أبدّلُ أحبابا وأوطانا

« يحاول أن يتركها فتمسك به ليلى »

ليلى : العقلَ يا قيس !

قيس : لا خَلى الرداءَ دعى

« ثم يفلت منها ويندفع الى سبيله »
« تاركا اياها باكية فى هيئة استعطاف »

ليلى : وارحمتاه لقيسٍ عاد ما كانا !

واهاً لقيسٍ وآهِ ما صنعا ؟ أكثرَ قيسٌ بلواى والوجعا

« تدخل عفراء »

عفراء عندى

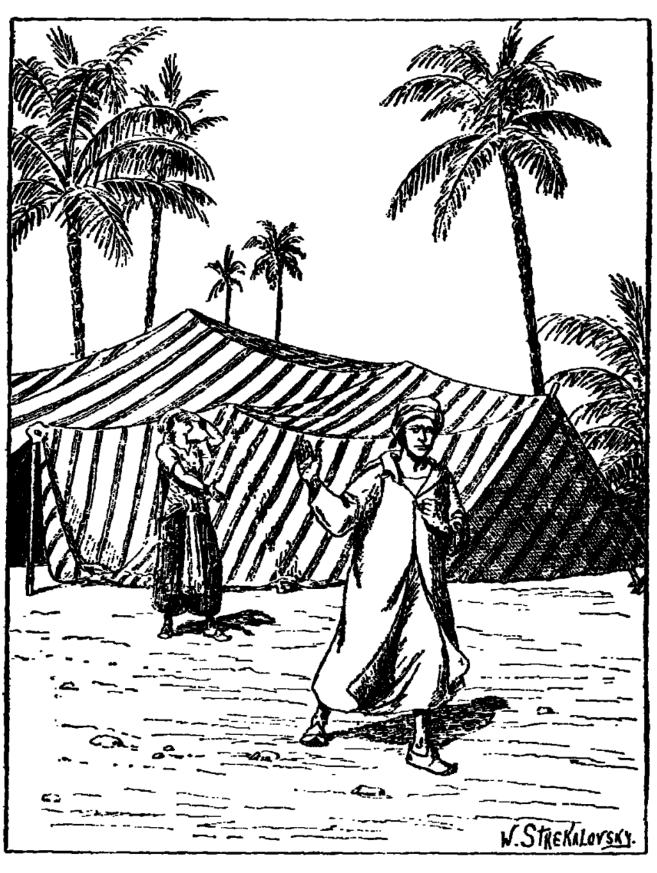
عفراء: لبّيكِ سيدتى الصبرَ واستدفعى به الجزعا

ليلى : لقد سمعتِ الحديث كيف إذن صبرى على ماجرى وماوقعا ؟

قلتُ لقيسٍ مقالَ مشفقةٍ لم يُلقِ بالاً له ولا سمِعا

وقيسُ ذو جِنّةٍ وإن زعموا جنونَه مدَّعًى ومصطنعا

تحير الناسُ فى جنون فتى لا عقلَ الا بشعره لعا



« . . . اتركينى بلاد الله واسعة غــداً أبدل أحباباً وأوطاناً »

(صفحة ١٠١)

واللهِ لو جاء فى محاسنةٍ يسألُ وردَ الطلاقَ ما منعا
فوردُ يا عفر لا كِفاءَ له مروءةً فى الرجال أو ورعا

آه من السقم

عفراء: ألفَ عافيةٍ

ليلى : آه من الحادثاتِ

عفراء : ألفَ لعًا

ليلى : أناعُذريّةُ الهوى أحملُ العبْء وإن ناءَ بالصبابة جهدى
المحبّات ما بكيْن كدمعى فى الليالى ولا أرِقن كسهدى
ويح قيسٍ وويحَ لى أى ثارٍ للمقادير عند قيسٍ وعندى
أتعب الحىَّ داءُ قيسٍ ودائى وتعايى الدواءُ كُهّانَ نجد
لا الحواميمُ تصرفُ الجنّ عنا
حين تُتلى وَلا رُقَى السحر تُجدى
أبقيسٍ وبى هوى عبقرىٌّ يَسلُبُ العقلَ من ذويه ويُردى
عِلّةُ البيد من قديمٍ وداءٌ ضاعَ فيه الرُّقى وحار المُفَدِّى
ما سلاحاه حين يقتلُ إلا من عفافٍ ومن وفاء بعهد
لم تُعَذَّبْ بالحب عذراءُ قبلى كعذابى ولن تعذَّبَ بعدى

عفراء: هى عــذراء ؟ ربىَ اشهدْ

ليلى : أجلْ عذراءحتى يضمنّى ركنُ لحدى

عفراء: والذى أنتِ تحتَه ؟

ليلى : تحت بعل غيرِ ذى جَفوةٍ ولا مستبد

راعنى اللومُ من جميع النواحى فتواريْتُ فى مُروءةِ ورد

«يقبل ورد وقد سمع آخر ما كانت تقول »

ربِّ ماذا سمِعت؟ ليلى شكورٌ لك نفسى الفِداءُ يابنتَ مهدى

ليلى : ورد

ورد : لــيلى

ليلى : رُحمــــاكَ وردُ وعفــوا

كنتُ أخفى الجوى فأصبحتُ ابدى

ورد : ما بليلى ؟ ما ذا أثاركِ ليلى ؟ هدئى روْعَكِ المُفزَّعَ هدِّى

ليلى : الداء يا ورد فىّ مجتهــد ملتهِمٌ هيكلى وما شبِعــا

أصبحتُ لاأشتهى الطعامَ ولا يَحمدُ جنبى الىّ مضطجَعا

قلبى من اليأس حين حلّ به أحسُّ يا وردُ أنه انصدعا

لم يحملِ اليأسَ ساعةً ولقد كان بما حملوه مضطلِعا
المتمنى بالعيش منتفِعٌ ولن ترى يائساً به انتفعا
القدرُ اليومَ والقضاء على حر بكَ قيسُ وحربيَ اجتمعا

«ستار»

*

الفصل الخامس

« مقابر على سفح جبل التوباد في طريق عام على مقربة من حي بني »
« عامر يبدو من بينها قبر جديد ما زال أشخاص من الحي يهيلون »
« عليه التراب ويضعون الأحجار ، ومن حوله كثير من رجال الحي »
« وفتيانه وصغاره يرى بينهم المهدي وورد وكلهم باك أو حزين — »
« يبدأ المشيعون في الانصراف وهم يعزون المهدي ويصافحونه واحداً »
« بعد واحد ويمرون على ورد مروراً »

معز : إنا لله أبا ليلى

آخر : صبرٌ أبا ليلى جميل

« في أثناء انصرافهم يمر رجل في الطريق »
« فيسأل صبياً من صبيان الحي في ناحية »

المار : قبرُ مَنْ يا صبي ؟

الصبي : قبرُها يا أبي

المار : إمرأة ؟

الصبي : نعم

المار : ومَن تكونُ ؟

« الصبي مشيرا الى المهدى »

بنتُ ذا الرجل

ليلى ابنـةُ المهدِى　　ألستَ من نجدِ ؟

صبي آخر : أجلْ قد دُفنتْ ليلى　　وما جفّ لها لَحْدُ

وذا الشيخ أبو ليلى　　وذا صاحبُهـا وردُ

هنا الوالدُ والزوجُ

المـار : وقيس ؟

الصبي : لم يجىءْ بعد

« يقترب الرجل من المهدى فيعزيه »

المـار : مَهدىُّ أجملْ جزعا

معز : يا أبا ليلى جَمالَكْ

آخر : عَزاءً أبا ليـــــلى

آخر : عزاءً أبا ليـلى

آخر : صبرٌ أبا ليلى جميل

« صديق من أصدقاء ورد هامسا اليه »

لقد أحسنتَ يا وردُ　　وما للناس إحسان

يُعزُّون أبا ليلى   وما عزّاكَ إنسان
بل انظُرْ ترَهم أقسى   عليك اليوم ما كانوا
على الأوجُه بغضاء   وفى الأعيُن عُدوان

ورد : مهلاً أخى وانظُرْ الى النـــــاس بعين مُنصِفِ
هم يأخذون ما بدا   ويتركون ما خفِى
ظنُّ الجماعات فىَّ سوء   ورأيُهم فىّ ما أصابا
يرَوْن أنى عدُوُّ قيسٍ   أخذتُ ليلى منه اغتصابا
وزدتُ نفسيْهما شقاءً   وزدتُ قلبيهما عذابا
ليسألِ الناس قبر ليلى   فان فى قبرها الجوابا

« يلتفت الى المهدى بعد أن يعزيه آخر معز »

تجمّلْ أبا ليلى

« المهدى — مصافحا إياه »

تجمّلت طاقتى   ولستُ بخوّارٍ قليل التجلُّدِ
حَمَلْتُ فُضولَ الناس ياوردُ حِقْبَةً   إذا قمت من باغٍ عثرتُ بمُعتدِ
يعيشون فى عرضى فمن كل مِعوَلٍ   ومن كل مِقراضٍ ومن كل مِبرَدِ

وهـذا يحيّيني و يقطعُ فرْوَتى وهذا يُفدّيني و يهدِمُ سؤدَدى

و يا ورد لولم تُرْخ ستراً على ابنتى لظلّتْ بعرضٍ فى البوادى مبدَّد

حَفِظتَ ابنتى حفظ الشقيق ومُرِّضتْ

ببيتك تمريض الصغـير المُهَّد

وصيّرتَ ليلى فى حماكَ وخدرهَا كعذراءِ ديْرٍ أو كدُمْية معبَد

لقد صنتهَا يا وردُ فاذهبْ فما أنا بناسٍ لك المعروف أوجاحد اليدِ

وليلى فتـاةٌ حُرةٌ بنتُ حرّةٍ أحبتْ غلاماً سيّدا وابنَ سيّد

وأعلمُ أنى كنتُ حربَ هواهما وكنتُ مع الواشى وعَوْنَ المفنّد

« يلتفت الى القبر باكيا »

بظل الله يا ليلى

ورد : وفى بحبوحة الخُلْدِ

وهـذا نَجدُ يا ليلى فنـامى فى ثرى نجدِ

« يدخل دائرة المسرح من جانب الطريق الآخر »
« الغريض المغنى والشاعر ابن سعيد وأميه وسعد »

الغريض : دنا الحىُّ يابن سَعيد وثمّ -

ابن سعيد : وما ثمّ ؟

الغريض : أُنظر يُعجبْك النظرْ

ابن سعيد : قبورٌ ؟

الغريض :

أجل عارضتْنا القبور وعما قليل نُجيزُ الحُفَرْ

ابن سعيد :

وهل نحن إلا على حُفْرَةٍ هى الأرضُ أوهى قبر البَشَر
محجّبةٌ بغرور الحياة يراها إذا غرغر المحتضَر

غريضُ: بصُرت بقبرٍ جديد

الغريض : وماذا سوى الموتِ فى ذا العَفَرْ ؟

ابن سعيد :

أخٌ كان يملأ أمسِ الهواء ويحيا الحياةَ ويجرى العمُرُ
نزيلٌ لعمرى غريبُ الغِطاءِ غريبُ الوِطاءِ غريبُ الحُجَرْ
لدى منزلٍ كبيوتِ الكِرَاء مراراً خلا ومراراً عمَرْ
يُزارُ كثيراً فدون الكثير فغِبّاً فيُنسى كأن لم يُزَرْ
وليس بنافعه الواصلون وليس بضائره من هجَرَ
فياميْتَ أمسِ عدتْكَ الرياحُ وحيَّاكَ فى الفترات المطر

وأمسِ كعادٍ وان كان منك   مُطيفَ الخيال قريب الصُّوَر
لقد نفض الليلُ منك اليدينِ   وأدركَ فيك النهارُ الوَطَرَ
وأمسيتَ تحت لواءِ التراب   قهرتَ القضاء ودنت القدر
تلفَّتْ وراءكَ أين الغرورُ   وأين السرورُ وأين الأشَر
وأين مَعالِمُ عُرْسِ الحياة   وأين سنا ليله المزدَهِرِ
وأين شبابٌ كحُلْمِ العروسِ   ضَحُوكُ العشِيَّاتِ طَلْقُ البُكر
وأين العداواتُ من سافرٍ   مُبينٍ ومن كاشحٍ مُسْتَتِرِ
وأين المودَّاتُ من صُحْبَةٍ   كنحلٍ يَحُمْنَ وأنت الزَّهرَ
قليلون عند امتناعِ القِطَافِ   كثيرون عند رجاء الثمر
وكم مَن سَقَيْتَ بشَهْدِ الوداد   فلم يَجْزِ الا بصابِ الإبر
فذُقْ سِنةً لا كَكُلِّ السِّنَاتِ   ونَمْ ليلةً مالها من سَحَر
وقُلْ للصديقِ طوَيْنَا الحديثَ   وقل للعدوِّ دفنَّا الخبر
وهَيِّىء مكانيهما فى الترابِ   فان ركابَهما مُنْتَظَر

سعد : أميةُ ماذا ترى فى الغريض؟

أمية : وماذا أرى فى أميرِ الطرب؟

سعد : لقد علِم الناسُ أن الغريضَ مغَنِّي الحِجازِ وشادى العربْ
ولــكن . . .

أمية : وماذا وراءَ « ولــكن ؟ » فمن شأنها أن تُثيرَ الرِّيَب

سعد : امىَّ اخفِض الصوتَ لايسمعَنَّ فيغضبَ فهو قريبُ الغضب
وأُذْنُ المغنى تُحسُّ النسيمَ
وتَسمَعُ فى الكأسِ جرس الحَبَب
أميّةُ إنى أخافُ الغَريضَ وإن التَّطَيُّرَ بى قد ذهب

أمية : وأين تَرى الشؤمَ حولَ الغريض
وكيف ؟

سعد : رُويدكَ تَدرِ السبب
أليس الغريضُ يَهيجُ البكاءَ فلو رام دمعَ العروسِ انسكب
ترعرع فى بِيئةِ النائحاتِ وعلّمنه النَّدبَ حتى نَدَبْ
ينوحُ بيثربَ آلَ الرسولِ ويُذكِى مآتمَ أهلِ الحَسَبْ

أمية : وأين يدُ الشؤمِ مما ذكرتَ وأىَّ بلاءٍ علينـا جَلَبْ
وما هو إلا مُغَنِّي الحيـاةِ بناحيتيهـا الأسى والطرب

سعد : ولكننا قاصدو عامرٍ لنقضيَ حقًّا لِقيس وجب
ونسألَ عن عاشقٍ فى الديارِ طويلِ البلاءِ ثقيل الوَصَبْ
ومن زار بالنائحات المريضَ وأهلَ المريضِ أضاع الأدب

« يتهيأ الغريض للغناء »

هو ذا هاج شجُوه هو ذا يُرسلُ النغَمْ
هاتفٌ من نُواحِهِ رنّ فى القاعِ والأكَمْ
هو فى كلِّ خاطرٍ وفؤادٍ صَدَى الألم

« أنشودة الغريض »

واديَ الموت سلامُ وسقَى القاعَ الغمامُ
السماء القُدْسُ مِحرابُكَ والأرضُ الحرامُ
أنتَ فى الصمتِ مُبينٌ ومن الصمْتِ كلامُ
لم يَمتْ أهلُكَ لكن غشِيَ الليلُ فناموا
غُيَّبٌ لم ندر ما صاروا ولا أين أقاموا

« يخرجون الى ناحية الحى من حيث يسمع آخر »
« الانشودة ثم يدخل من الجانب الآخر على أثر »
« اختفائهم ، قيس وزياد »

قيس : جبلَ التَّوْباد حيَّاكَ الحيا وسقى اللهُ صبانا ورعى
فيكَ ناغينْا الهوى فى مهده ورضَعْناه فكنتَ المُرضِعا
وحَدَوْنا الشمسَ فى مَغرِبها وبكَرْنا فسبقنَا المَطلعا
وعلى سفحِكَ عِشنا زمنا ورعينا غنمَ الأهل معا
هذه الرّبوةُ كانت مَلْعباً لشبابينا وكانت مَرْتعا
كم بنيْنا من حصاها أربُعاً وانثنينا فمحونا الاربُعا
وخططْنا فى نقا الرمل فلم تحفَظِ الريحُ ولا الرملُ وعى
لم تزَلْ ليلى بعينى طفلةً لم تزِد عن أمسِ الا إصبَعا
مالأحجاركَ صُمّاً كلما هاجَ بى الشوقُ أبتْ أن تسمعا
كلما جئتُكَ راجعتُ الصِّبا فأبتْ أيامُهُ أن ترجِعا
قد يهونُ العُمُرُ الا ساعةً وتهونُ الأرضُ الا موْضعا

« يظهر بشر قادما الى المقبرة من ناحية الحى »

بشر : عزاءً قيسُ !

قيس : مَنْ ؟ بشرُ ؟

بشر : أجل

قيس : فيمن تُعزّينى ؟

أنا الميِّتُ يا بشرُ وإن أخِّرَ تكفينى

« يضطرب بشر وقد أدرك جهل قيس »
« وحرج الموقف ثم يميل هامسا الى زياد »

بشر : يجهَلُ قيسٌ موتَها ولم أَخَلْ أن يجهلَهْ
ويْحَ له وويْحَ لى ! ماذا عسى أقولُ لهْ
إن الحبيبَ نعيُه الى المحب مُعضلهْ
إنى أخاف إن أنا خبرْتُه أن أقتلَه

قيس : بشر
بشر : لَبّيك قيسُ
قيس : من أين يا بشرُ ؟
بشر : من الحىّ
قيس : ما حوادثُ عامرْ ؟
كيف أمى يا بشر ؟
بشر : برّحها الشوق
قيس : وأهلى . .
بشر : حنينهم متكاثر

قيس : ولِداتى من فتيةٍ وعذارى ؟

بشر : كلهم شيِّقٌ لعهدك ذاكر

قيس : كيف بِتُّ لنا بمدرَجةِ الريح وتادٍ على النجوم وسامِر ؟

والنخيلاتُ كيف خلَّفتها بشر

بشر :

كما هن باسقاتٌ نواضر

قيس :

ومِهارى التى تركتُ صِغاراً ؟

بشر :

كبِرت قيسُ فهى جُردٌ ضوامر

قيس :

عزّت البيدُ ، تُنبتُ السابق الفذَّ وتأتى بفارس وبشاعر !

« يضطرب بشر »

ويح بشر ماذا به ؟

بشر : قيس !

قيس : بشر !

أنت فى نفسكَ الخفيّةِ ثائر

تُشبِهُ الحزنَ والبكى نبَراتٌ لكَ كانت كضلخكاتِ المزاهر

« بشر — الى نفسه ثم الى قيس »

ربِّ ماذا أُجيب ؟ لا شيءَ يا قيس . .

قيس : بل الحزنُ فى مُحيّاكَ ظاهر

ولقد راعنى لك اليوم جِدٌّ من خليعِ العِذار بالأمسِ سادِر

« تغرورق عينا بشر بالدموع »

ماجرى؟ماالذى أثارك يابنَ العم؟ ما هذه الدموعُ البوادر ؟

بشر : قيس لا شيءَ

قيس : بل كتمتَ جليلاً

هذه وَجْمةُ النعِيّ المحاذر !

بشر : قيس . .

قيس : لا تَجِمْ ولاتُخفِ شيئا أنا يا بشرُ بالفجيعةِ شاعر

خُلِجتْ قبل نلتقى عينىَ اليسرى وريعَ الفؤادُ روْعةَ طائر

بشر : أعفِنى! أعفنى! بربك ماأنت على ما أقولُه لك قادر !

قيس : أماتت ؟

بشر : أجل قضتْ أمسِ . .

« قيس وهو — يغمى عليه »

والىلاه !

بشر : لله — ما أشـدَّ المقـادر !

« يمضى بشر فى سبيله »

« زياد — مقتربا من قيس »

هو مغمىً عليه ربِّ أيصحو؟ هل لهذا العذاب يا ربُّ آخر؟

« يصحو قيس »

زياد : تباركتَ يا ربِّ قيسٌ أفاق ؟ صحتْ عينٌ وصحا المسمعُ !

رجعتَ لنا قيس

قيس : هيهاتَ هيهات ! من كان فى النَّزْع لا يرجِـع

لقد بقِيتْ خفْقةٌ فى السراج سـيلفِظها ثم لا يسْطع

زيادُ غداً يلتقى الموجَعون وموعِدنا ذلك البلقـع !

« يشير الى المقابر »

عرَفتُ القبورَ بعرْفـالرياح ودلّ على نفسـه الموْضعُ

كثكلى تلمّسُ قبرَ ابنها الى القبر من نفسها تدْفع

هداها خيالُ ابنها فاهتدت ... وليلى الخيـالُ الذى أتبعَ

لنا اللهُ يا قلب ! ليلاكـ لا ... تجيبُ وليلاىَ لا تسمع !

فُجِعنا بليلى ولم نك نحسَبُ ... يا قلبُ أنا بها نُفجع

« يقترب الى القبر باكياً فيكب بوجهه على حجر من أحجاره »

أعينىَّ هـذا مكانُ البكاء ... وهـذا مسيلُك يا أدمعُ !

هنا جسمُ ليلى هنا رسمُها ... هنا رَمَقى فى الثرى المودَع

هنا فمُ ليلى الزَّكىُّ الضحو ... كُ يكادُ وراء البلى يلمعُ

هنا سِحرُ جفنٍ عفاه الترابُ ... وكان الرُّقَى فيـه لا تنفع

هنا من شبابى كتابٌ طواه ... وليس بناشره البلقع

هنا الحادثاتُ ، هنا الأملُ الحـــلوُ يا ليـلَ ، والألمُ المُمتع

طريدَ المقادير هل مَن يُجيرُ ... كـ منها سوى الموتِ أو يمنع ؟

تَزِلُّ الحيـاةُ لسلطانها ... وللموت سـلطانُها يخضعُ

طَريدَ الحيـاةِ ألا تستقِرُّ ... ألا تسـتريحُ ، ألا تهجَعُ ؟

بَلَى قد بلغتَ الى مَفزَعٍ ... وهـذا الترابُ هو المفزَع

« يظهر الاموى شيطانه من بعيد ويناديه »



« أعينى هذا مكان البكاء وهذا مسيلك يا أدمع »

(صفحة ١١٩)

الاموى : قيسُ

قيس : مَن الهاتِفُ من — نادى الشريدَ المُطّرَحْ

الاموى : أنا الذى أوْحى اليكَ — حُبَّ ليلى واقترَحْ

قيس : إِذهبْ وإن لم أدرِ رُو — حٌ أنت أم أنت شبَحْ

إذهبْ فلستَ صالحا — وأىُّ شيْطانٍ صلَحْ

كنتَ قرينَ السوء لى — وكنتَ شرَّ من نصَحْ

لولاك ما بُحتُ بما — خدّش ليلى وجرَح

كأنه فى عِرضها — زيتٌ على الثوب سرَح

الاموى : أفقْ قيسُ

قيس : سِرْ خَلِّنى ياخيال — ومَنْ بالخيال لمن لم ينَمْ

الاموى :

حنانيكَ قيسُ أقِلَّ العتابَ — ولا تَسكبنَّ دموعَ الندمْ

تفرّدْتَ بالألم العبقرىِّ — وأنبغُ ما فى الحياة الألم

مُريبكَ يا قيسُ فوق التراب — وأنت مع النَّجمِ فوق التُّهَم

أخذتَ سبيلَك نحو الخلود — وليس الخلودُ سبيلَ الأُمَم

قُم اهتِفْ بليلى وشَبِّبْ بها — وخَلِّ التقاليدَ وانسَ الحُرَم

وطِرْ فى الهواء طليقَ الجناح | وسِرْ فى الأديم طليقَ القدم
فلو أنصفَ الناسُ خلَّوْ كما | كتَرْكِ الوفود حمامَ الحرَمْ
قُم ابسُطْ جناحَك فوقَ القِفار | وطِرْ فى الوهاد ، وقَعْ فى الأكم
واترِعْ من الوتر العبقرىِّ | سَماء القصور وأرضَ الخيَم
وأَلِّفْ على الحب شتىَّ القلوب | وأرسِلْ بسرِّ الجمال النغم
تَغَنَّ بليلى وبُحْ بالغرام | وبُثَّ الصبابةَ واشكُ السقَم
فلا خيرَ فى الحب حتى يَذيعَ | ولا خيرَ فى الزهر حتى يَنِمْ

قيس : أقوم ؟ . . . . هات قدَما
أقول ؟ . . . . أعطنى فما
أما ترانى هيكلاً محطماً مُهدَّما !

« يختفى الشيطان ويستمر قيس »

يارَبَّ قيسٍ هل نعيتُ وهل جرتْ | كأسٌ تدورُ على النفوس مَشاعُ
أوْلا فما بالى أنوءُ بهيكل | للموت فيه وللحياة صِراع ؟
اليومَ آذننا القضاءُ بحكمه | مالى ولا لك ياحياةُ دفاع
راجعت فى الموت الحياةَ وعادنى | فى النزْع يا ليلى اليك نِزاع

كيف الوَداعُ من الحياةولم يُتَحْ | لىَ منك ياليلى الغداةَ وَداع
هيهات لم تعدِمْ شـذاكِ قرارة | حولى ولم يَعدِمْ سناكِ يَفاع
وعلى سمـاء البيد منكِ بشاشةٌ | وعلى رمال البيـد منكِ شُعاع
وكأن كل ضبابةٍ دون الضحى | قسَماتُ وجهك دونَهن قناع

« يمر به ظبي سارح فيتامله قليلا ويناجيه »

ياظبي بَكٍّ من افتـداكَ بمـاله | إذ أنت عانٍ تُشتَرى وتُبـاع
وأباح طفلَكَ ماءه وطعامَه | اذ هنّ عَطْشَى بالفَلاة جيـاع
ياقاعُ كن نعشيوكن كفنى وكن | قـبرى وقُمْ فى مأتمى ياقاع
واجمَعْ لتشييعىالظّبَاء،ومَنْ رأى | ميتًا بأسراب الظباء يُشـاع
أتُرى أموتُ كما حييت مُشرَّدًا | لا الأهلُ من حولى ولا الأتباعُ
وأبيتُ وحدي لاالوحوشُ أوانسٌ | حولى هناكَ ولا الظباء رِتاع ؟

« تتخاذل سيقان قيس فيتلقاه زياد ويظهر »
« ابن ذريح على مقربة من القبر خاشعاً باكياً »

زياد : قيسُ لا بأسَ عليكْ أنا ذا بين يديكْ

قيس :

نفسُ اطمئنى الآن لستُ وحدى | قد حضَر الذى يَخُطُّ لحـدى

وَيُرْشِدُ الحيَّ الىّ بَعدى　　زيادُ أنتَ المُشْفقُ المُفَدّى

لم أنفرِدْ الا رُؤيتَ عندى

« يتبين شبح ابن ذريح »

زيادُ ما ذاك منذا　　يبكى وراءَ الضريحِ

إِنى أغارُ على القبر　　من غريبِ الجُروحِ

زياد : لا تخشَ يا قيسُ منه　　فانه ابنُ ذريحِ

ابن ذريح :

يا ليلَ قبرُكِ رَبوةُ الخُلْدِ　　نفَحَ النعيمُ بها ثرى نجدِ

فى كل ناحيةٍ أرى مَلَكا　　يتنفسون تنفسَ الورد

لبِسوا الجُمانَ الرّطْبَ أجنحةً　　وتناثروا كتناثُر العِقد

وتقابلوا فعلى تحيّتهم　　مِسْكُ السلام وعَنبرُ الرد

وكأن نجواهم وسُبحَتَهم　　صَوْبُ الغمامة أوصَدَى الرعد

نفحاتُ طِيبٍ ههنا وهنا　　ما للرياض بهن من عهد

يا قيسُ صبرا ههنا مَلَكٌ　　ذِبْحُ الصبابة مُشهَدُ الوجد

أصحُ انتبهْ واطرَحْ بعينك فى　　بَهَجِ السماءِ وحُسْنِ ما تبدى

قيس : أين السماء وأين مُحتضَرٌ　　طلَعتْ عليه الأرضُ باللَّحْد



فى كل ناحــية أرى ملــكا يتنفسون تنفس الورد

(صفحة ١٢٤)

السهدُ عذّبنى وذى سِـنةٌ أجِدُ الشفاء بها من السُّهد
ولقـد أقولُ لمن يُبَشِّرُنى بالخُلد ما أنا داخلٌ وحدى
لو أن ليـلى فى النعيم معى أو فى الجحيم تساويا عندى
ليلى النعيمُ وقد ظفِرت بها فاليوم نرقُدُ فى ثرى نجـد
إنى أحبُّ وإن شقيتُ به وطنى وأوثِرهُ على الخُلد

« يسمع صوتا ضئيلا كأنما هو خارج من القبر »

الصوت : قيس

قيس : مَنِ الصوتُ ويحى أبى سِحرُ

الصوت : قيس

قيس : زيادُ اسمعْ وأصغِ يا بِشرُ

الصوت : قيس

قيس : سمعتَ اسمىَ يلفِظُه القبرُ

الصوت : قيس

قيس : تنادينى من قبرها باسمى
لبيّكِ يا ليـلى بالروح والجسم

« يدخل فى دور الاحتضار الاخير »

هل أسى الموتُ جِراحيناْ وهل قرّبَ الدارَ وهل لمّ الشتاتْ؟

أصوات: قيس ، ليلى

قيس : رَنَّةٌ فى أُذُنى ردّدتْ قيسَ وليلى الفلَواتْ

نحن فى الدنيا وإن لم تَرنا لم تمُتْ ليلى ولا المجنونُ مات

« ستار الختام »

*

نظرات تحليلية

تمهيد

اختلف الرواة فى مجنون بنى عامر ، فى اسمه وفى شخصه ، وفى حياته وموته ، وفى قصة هواه أهى موضوعة . لها بها قوم وتداولها آخرون ، أم هى مأساة حقيقية ، ومهما يكن فقد أصبحت قصة المجنون فصلا خالدا فى تاريخ الأدب العربى فيه روح شعرية ناضرة ، تحدث الأجيال عن أسمى وأعلى مثل للغرام البدوى القوى العفيف وهذا ما يعنينا حيال هذه الرواية الجديدة

هيكل الرواية

اختار المؤلف لمجنون بنى عامر اسما واحدا من بين الأسماء الكثيرة التى اختلف فيها الرواة ، هو « قيس بن الملوّح » ثم كنّى عنه فى بضعة مواضع بأبى المهدى ، واختار لحياة قيس من بين رواياتها

المختلفة ، أسلسها وأجراها مع المنطق : أن قيسا وليلى نشآ فى بيتين من أشرف بيوت بنى عامر ، فتعارفا طفلين ، فتوادّا ، فاستحالت مودتهما غراما مع الأيام . ثم شبّب بها قيس فى شعره فحيل بينها و بينه نزولا على ما سوف ترى من سنة البادية ، فزفت إلى غيره ، فاتقد هواه واتقد حتى أشرف بعقله وجسمه على حال هى الجنون أو تكاد

فأما شرف بيتيهما فتراه حيث يتحدثون عن قيس فيقولون فى غير موضع واحد إنه «سيد من عامر وابن سادات» وحيث يتحدثون عن ليلى فيقولون عنها «عقيلة الحمى» و ينادون أباها «ياسيد الحمى»

وأما مودتهما طفلين فاليك عليها شاهدين من عدة شواهد تراهما فى كلام المجنون :

« فكم قبلة ياليل فى ميعة الصبا — وقبل الهوى ليست بذات معان »
« أخذنا وأعطينا اذا البهم ترتعى — و إذ نحن خلف البهم مستتران »

***

« هذه الربوة كانت ملعباً — لشبابينا وكانت مرتعاً »
« كم بنينا من حصاها أربعاً — وانثنينا فمحونا الأربعا »

« وخططنا فى نقا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى »
« لم تزل ليلى بعينى طفلة لم تزد عن أمس الا إصبعا »

وأما هواهما ، وكيف حيل بينهما ، فأنظرنا قليلا نقص عليك نبأه فى شىء من التعميم والأطناب .

لمحة سياسية

كان الحسين بن على كعبة القلوب والأبصار فى جزيرة العرب ، بعد أن قتل أبوه على ، ومات أخوه الحسن ، وانتهت خلافة الاسلام الى معاوية بن أبى سفيان

أصبح معاوية أمير المؤمنين ، وانداح السلطان عن بوادى العرب الى حواضر الشام ، واستقر الحكم الجديد فى دمشق تاركا مكة وما يليها تحت ولاية مروان بن الحكم فى هذا العصر عاش المجنون فى بادية نجد أو قيل إنه عاش

ما كان فى الحجاز وما يليه يومئذ مسلم يستطيع أن يبتسم للزمن الجديد وللدولة الجديدة ابتسامة من أعماق نفسه ، وهو يرى الدين الذى هشت له عاطفته وقلبه ، وامتلأ منه يقينه وإيمانه ، تعرض له

الدنيا التى أقبلت على دمشق محمولة على أسـنة بنى أمية وأحلامهم فتنقله من حيث كان يراه هـذا العربى فى مكة ميزان العدل وآية الزهد والورع ، الى حيث قدر له هذا العربى أن يكون فى دمشق ملـكا دنيويا

وكذلك ظل الحسين قائما فى نفوس الناس هناك صورة مقدسة لبداوة الاسلام ، تستمد أنضر ألوانها من صلته القريبة بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و بنوته لرجل كان أشد الناس زهدا واستصغارا لدنياه ، وكذلك ظهرت بلاد العرب وقلبها يخفق باسم الحسين، ولسانها المغلول إما منافق يترضى الحاكم الجديد ، و إما خائف تسنح له الفرصة فيهتف باسم الحسين فى معزل عن العيون والأرصاد

قدّمَت ليلى الى أترابها فى مجلس من مجالس السمر ، ابن ذريح على أنه رضيع الحسين ، قادما من يثرب يشفع عندها لصديقه قيس . قالت عبلة لجارها بشر :

« أتسمع بشر : رضيع الحسين ، فديت الرضيعين والمرضعه »

« وأنت إذا ما ذكرنا تصاممت . . . . »

فانظر كيف يجيبها بشر وكأنه أهين :

« . . . . لا جاهلا موضعه »

« ولكن أخاف امرأ أن يرى　　على التشيع أو يسمعـــه »

« أحب الحسين ولكنما　　لسانى عليه وقلبى معه »

« حبست لسانى عن مدحه　　حذار أمية أن تقطعه »

ثم ترى الحسين فى موكبه بين مكة والمدينة ، فاذا الحادى يغنى:

« يا نجد . . . . »

« سر فى ركاب الغمام ليثرب »

« هـذا الحسين الأمام ابن النبى »

وإذا عامل من عمال بنى أمية ، هو نصيب كاتب ابن عوف أمير الصدقات فى الحجاز ، ينسى فى جلالة هذا الموكب نفسه ومكانه من أمية ، فيجيب زيادا والغضب آخذ منــه ، إذ يسأله « من لواء الموكب ؟ »

« قد بين الحادى فقل　　أصم أنت أم غبى »

« هـذا منـار العرب　　هذا الحسين ابن النبى »

« هـذا سنا جبينـه ملء الوهاد والربى »

وإذا ابن عوف أشـد من صاحبه حرصا على نفسه ومكانه من أمية ، وإذا هو أكثر منـه تقديرا لسلطانهم ؛ وكأنى بك وقد أشفقت على نصيب أن يصيبه غضب مولاه ، لـكن الواقع أن مولاه لا يغضب منه ولا يقسو عليه وإنما يكفيه فى أمره عتب تافه يهمس به اليه :

« نصيب صه لا تسلـكن بنا مسـالك التهم »
« إحذر جواسيس ابن هند وعيون ابن الحـكم »

وكأنه فى هذا العتب الهامس الرقيق يشارك عامله فى تقديس الحسين ، بل هو يجهر بهـذا الحب جهرا ضمنياً إذ يقول لزياد عن غيبوبة المجنون :

« زياد انظر فما أنفك صريع الوجد والذكرى »
« كما مر بنا الركب الحسينى به مرا »
« فلم يشغـل له بالا ولم يوقظ له فكرا »

ثم يعود نصيب فى موقف آخر فيذكر الحسين غائبا ، لـكنه

يذكره فى هذه المرة بينه و بين نفسه ، لا يخشى سطوة أمية ولا عتب ابن عوف « ولا عيون ابن الحكم » فتراه فى هذه المرة يلعن الزمن ويلعن الوظيفه إباء على مولاه أن يتشبه بالحسين فى الشفاعة لعاشق ، إذ يقول :

« يا دهر در بما تشا ويا حوادث اهزلى »
« ويا وظيفة اعزبى ويا جراية ارحلى »
« يبغى ابن عوف أن يكو ن كالحسين ابن على ! »

وهنا تخرج ليلى أو يخيل اليك أنها خارجة عن تلك القاعدة التى وضعناها لسكان البادية ومنزلة الحسين من نفوسهم ، كما تخرج عنها فى قول ابن ذريح :

« ألأنى أنا شيعى وليلى أموية ؟ »

ويخرج معها قيس فى هذا البيت ، أو كذلك يخيل اليك :

« ليلى على دين قيس فحيث مال تميل »

على أنه بالرغم من كل ما ذكرنا فى هذه اللمحة السياسية ، يجب أن نعود فنقول إن هذا التشيع الحزبى لم يكن له أثر كبير فى

حياة أولئك العرب البادين ، ولم يظهر فى الرواية الا فى هـذه بضعة مواقف ، ثم غطاه المؤلف بنزعة أقوى منـه أثرا فى حياة قاطن الصحراء ، نزعة تعبر عنها ليلى اذ تقول :

« ولم نصطدم بهموم الحياة   ولم ندر لولا الهوى ماهيه »

ويعبر عنها زياد إذ يقول :

« سيطر الحب على دنيا كمو   كل شىء ماخلا الحب عبث »

عادات العرب

أظهر ما يضرب العين فى هـذه الرواية من عادات العرب تلك السنة التى جروا عليها أن يحولوا بين العاشق ومعشوقته إذا شبب بها وأعلن هواه والتى يقدمها المؤلف فى أكثر من موضع يقول فى أحدها

« ومن عادة البيد نفض الأكف   من العاشقين إذا شببوا »

والتى يعللها لك المؤلف بخشية العار والفضيحة فى أكثر من موضع كذلك يقول فى أحدها والحديث عن ليلى بين قيس وشيطانه :

« لولاك ما بحت بما   خدش ليلى وجرح »

« كأنه في عرضها زيت على الثوب سرح »

والمؤلف يرجع بهذه السنة الى شرع جاهلى قديم ، ترى أقوى الشواهد عليه فى قوله إن ليلى إذ ضربت بغرامها الأرض إنما كانت :

« تصون القديم وترعى الرميم وتعطى التقاليد ما توجب »
« وبالجاهليــة إعجابهـا . . . . »

ثم ينحدر المؤلف بهــذه السنة قوية مع الزمن حتى تعرض لها حضارة الاسلام فتوهن من قوتها ، وترسل فى جبروتها نفحة من روح التسامح ، تهمس تارة على شفتى رجل مجهول أن ليلى إذا كان إعجابها بالجاهلية فقد « قال بالسلف المعجب » وتنادى حى ليلى تارة على لسان شخص آخر :

« هبوه جن بليــلى ليس الغرام بجرم »

ثم تتغنى تارة أخرى على ألسنة الصغار :

« إيه يا شـاعر نجد ونجى الظبيـات »
« أضمر الحب وأبد لأعف الفتيـات »

ثم تتحرك هذه الروح فتستشفع الحسين فى عاشق ، وتستشفع

بن عوف فى عاشق آخر ، ثم تقوى هـذه الروح فتسلط الندم والعذاب والتعاسة على هذه الفتاة التى « تصون القديم وترعى الرميم وتعطى التقاليد ما توجب » تجعلها « مأمورة يقود لسانها شيطان » وطعينة « بسكين من العـادة والوهم » وتنزلها فى بيت « هو القبر حوى ميتين جارين على الرغم » ثم تسلط عليهـا الداء « يلتهم هيكلها » واليأس « يصدع قلبها » والموت يسلبها الحياة

على أن هذه الروح الجديدة التى دبت فى عتق هذه التقاليد لم تزلزل سلطانها جميعاً ، وحسبك ما رأيت من هدر دماء قيس ترضية لهـذه التقاليد حتى تعلم أن هذه الروح كانت فى مولدها تعمل عملها لبطىء فى سكون

ثم يتلو هذه العادة سلسلة من أخواتها الصغار منها اسـتدفاع الخدر بنداء الحبيب ، وعلاج الغيبوبة بالتكبير فى أذن المغمى عليه ، وإيقاد النار وراء الضيف الثقيل وفى هذه يقول ابن عوف :

«نزلت فلم أكرم فهل أنت متبعى   وقومك نار الطرد حين أميل»

ومنها تصفيق المسافر وارتداؤه الثوب مقلوباً إذا ضل الطريق ،

ومنها ـ ونقرر هذه العادة بشىء من التحفظ ـ إطلاق الحرية للفتاة فى اختيار القرين كما يبدو فى قول المهدى لفتاته

« هو الحكم يا ليلى ما تحكمين خذى فى الخطاب وفى فصله »

فقد تكون ثقة الرجل من رأيها وقوتها وحرصها على حرمة التقاليد ، هى التى جعلته يقامر مطمئناً بهذا الاطلاق ، وقد يكون هذا التحفظ لا محل له اذا وضعناه فى الميزان مع قول من يقول :

« وليلى ابنة الشيخ مارأيها اما من حساب لها يحسب »

حياة البادية

فى هذه الرواية صور متفرقة من السهل أن نؤلف منها يوماً من أيام البادية بسيط المطامع فى جاه الحياة . . . ماذا يفعل البدوى فى يومه هذا وما هو الا ظل مصغر من حياته جميعاً ؟ يأكل من طعامه البسيط وتسميه هند « ما طهت الماشية » ويبسط لك المؤلف أحفل موائد هذا الطعام البسيط فى قول المهدى :

« هو الضيف ياليلى هاتى الرطب

وهاتى الشواء وهاتى الحلب »

« وهاتى من الشهد ما يشتهى

ومن سمنة الحى ما يطلب »

ثم يرعى قطعانه يأكل منها ويكتسى من صوفها بما تغزل يداه ثم يصيد أحياناً لرياضته وأحياناً لطعامه وأحياناً ليدفع عن نفسه ضراوة الوحوش وفى ذلك تقول ليلى :

« وآناً نخف لصيد الظبا ء وآناً الى الأسد الضارية »

ثم يحب وسنعرض لهذا الحب بعد قليل ، ثم يؤمن بالدين والجن والسحر وتراها مجتمعة على لسان ليلى إذ تقول :

« لا الحواميم تصرف الجن عنا حين تتلى ولا رقى السحر تجدى »

ثم أخيراً يحرص على شرفه وعرضه ، ويدفع عنهما بالروح بغى الآثمين ، وخير ما يبدو لك هـذا العنصر القوى فى حياة البدوى عند ما ينادى المهدى رجل من رجال الحى :

« ذد عن عقيلة الحمى وامنع حياض الشرف »

« نحن كعثمان وليلى بيننا كالمصحف »

غرام البادية

تتحدث ليلى عن البادية فتقول لابن ذريح :

« أكنت من الدور أو فى القصور ترى هـذه القبة الصافيـه »
« كأن النجوم على صـدرها قـلائد ماس على غانيـه »

ثم تستأنف حديثها فتقول :

« لها قبلة الشمس عند البزوغ وللحضر القبـلة الثانيـه »

وتتحدث هند عن هذه البادية نفسها فتقول :

« كفى يا ابنة الخال هذا الحرير كثير على الرمة الباليـه »
« تأمل ترى البيد يابن ذريح كمقـــبرة وحشة خاويه »
« سئمنا من البيـد يابن ذريح ومن هـذه العيشة الجافيه »
« ومن موقد النـار فى موضع ومن حالب الشاة فى ناحيـه »
« وراغية من رواء الخيـام تجيب من الـكلأ الثاغيـه »
« وأنتم بيثرب أو بالعـراق أو الشام فى الغرف العاليـه »
« مغنيكمو معبـد والغريض وقينتنا الضبع العـاويه »

« وقد تأكلون فنون الطهاة ونأكل ما طهت الماشـيه »

وشىء واحد فى حياتى هاتين الفتاتين يعزى اليـه هذا التناقض البيّن فى الرأى والتقدير ، أن ليلى فتاة محبة محبوبة ، وأن هنداً ... ليست هند كما أرادها المؤلف الا قلباً مغلقاً لم تمسس قفله يد الساحر !

أولئك قوم من سكان البادية يعيشون فى هذا العالم المنبسط ، بين سمائه الصافية ورماله المترامية وأفقه البعيد ، كأنمـا يعيشون فى فراغ يمثلون فيه قصة صغيرة موجزة من قصص البشرية الأولى حيث القلب خلى والمطمع ضئيل واللهو ساذج والرزق محدود ، حيث تمر الحياة كأنها فى بساطتها وتكرارها وتشابه مناظرها بياض نهار وسواد ليل ، نهار ممل وليل مضجر طويل ، ودون هذا وتحس هند أنهـا تعيش فى قبر تتغنى الضباع العاوية فيه !

فى وسط هذا الملل والضجر قد يتفتح قلب البدوى للهوى ، فاذا هو الهم الشاغل والفصل الحافل فى حياة البدوى ان لم يكن حياته كلها ،

لقد يمنح الحضرى لهواه ركنا من قلبه الزاخر بهموم الحضارة وأطماعهـا ولهوها ولعبها ودنياها ، يمنحه هذا الركن منحة ، وهو

واثق أنه الركن الضيق المنزوى ، وأنه الركن الذى تصيبه فواجع التضحية بين العاطفة والمادة .

أما البدوى فلا يمنح من قلبه لهواه شيئا وإنما يسلبه هـذا الهوى من قلبه كل شىء ، كلما عز فيه المنال ، وما أكثر ما يعز منال الهوى فى البادية ، كلما اندفع صاحبه وراءه اندفاع المتكالب المجنون

فهل من عجب بعد ذلك أن ترى ليلى البادية ما تراها ، وهل من عجب أن تقول عن نفسها وقومها :

« ولم نصطدم بهموم الحياة ولم ندر لولا الهوى ماهيه »
« ويقتلنا العشق والحاضرات يقمن من العشق فى عافيه »

وهل من عجب أن يخامر هذا الداء قيساً فيقول :

« سجا الليل حتى هاج لى الشعر والهوى
وما البيد الا الليل والشعر والحب »
« ملأت سماء البيد عشقاً وأرضها
وحملت وحدى ذلك العشق يا رب »

دع هـذا الهوى فى قلوب أصحابه يزخر ويتقد ، وعد بنا إلى البادية . . .

ما ظنك بأرض يضخم فيها كل شيء ، يزأر الأسد فيرعد زئيره، ويخفق القلب فيقتل خفوقه ، ويعثر العاشق عثرة لسان — كما تعثر لسان قيس بليلة الغيل — فاذا عثرته فضيحة تذل قبيلة وتملأ بذلها أفواه الكبار والصغار ؟ . . . ثم أخيراً ما ظنك بحب يعيش فى هذا المحيط ؟ أيستطيع هذا الحب الا أن يكون « عذريا » تحار الرقى فيه ؟ أيستطيع هذا الحب الا أن يعف ويتصوف حتى تفتح له نافذة فى هذه الأقفاص ؟

قيس

ليست حياة قيس فى الرواية إلا زفرة متصلة تتردد فى قلب مغرم جريح

ولكنا نعرض لقيس من ناحية أخرى ، قد تكون عارضا على حياته لا يدله فيه ، وقد تكون فى حياته صدى هذا الهوى المجتاح ، نعرض له من حيث اتهم بالجنون ولقب به ، لنرى حظه من حقيقة العقل أو حقيقة الجنون

الناس يصمون قيسا بالجنون أحيانا ، ثم يستنقذونه من هذا

الجنون أحيانا ثم يأخذهم فى أمره كثير من الشك والحيرة أحيانا أخرى ، وهم فى هذه الثلاثة الأحوال يتحدثون عن قيس فى شىء من يقين الواثق بصدق ما يقول . والمؤلف حفظه الله أشار الى ذلك ، أنظر الى منازل يقول عنه لزياد :

« تؤدبنى زياد وأنت ظل لمجنون وراوية لهاذى »

ثم يعود مرة أخرى فيسأل الناس :

« إن قيسا كامل فى عقله أو آنستم على قيس الجنون ؟ »

فيجيبه الناس مقسمين : « لا ورب البيت »

وتراه فى مرة ثالثة حائرا فى أمر قيس يتحدث عنه فيقول :

« تشرد مستعظما فى البلاد وجن فما ازداد الا نهى »

بل مالى استشير لك خصوم قيس فى عقل قيس ، اليك ليلى نفسها ، إنها فى موضع واحد تقرر من عقل قيس ما يقرر الناس ، وتنفى عنه ما ينفون وتحار فيه كما يحارون إذ تقول :

« وقيس ذو جنة و إن زعموا جنونه مدعى ومصطنعا »

« تحير الناس فى جنون فتى لا عقل الا بشعره ولِعا »

وهذا قيس كذلك يقول مرة :

« من مبلغ أمى الحزينة أن عقلى اليوم ثاب »

وفى مرة أخرى يقول :

« عساهم لا يقولون فتى مشترك اللب »

وفى موضع آخر يقول ويحار فى أمر نفسه كما يحار فيه الناس :

« ليلى نداء بليلى رن فى أذنى . . . . »

« ليلى لعلى مجنون يخيل لى لا الحى نادوا على ليلى ولا نودوا »

بعد تلك الاشارة نظر المؤلف الى ما يصدر عن قيس من أفعال وأعمال

فى الفصل الأول أغمى على قيس بين يدى ليلاه مرة ، فى لحظة تحرجها خشية الأب ، ولذعة النار ولقاء الحبيب فى معزل . . . وقبل هـذا الاغماء كان قيس يتحدث لليلى حديث العاشق العاقل ، فأحس أن عينيه قد غامتا ، وأن ساقيه لاتحملان جسده ، ثم أخذته الغيبوبة فظل أسيرها لحظات حتى أفاق

« كالغنن الذاوى نحولا وكالمغيب اصفراراً »

فاذا صحا عاد فتحدث الى المهدى حديث العاقل وجادله جدال العاقل لا يكدر صفاء عقله وسواس من وساوس الجنون

وفى الفصل الثانى أغمى على قيس للمرة الثانية ، فى لحظة حرجة أخرى ، أحرجتها لوعة الذكرى كما أحرجها عذاب النفس ، كما أحرجها بغى الصغار . . . وقبل هذا الاغماء كذلك كان قيس يحدث نفسه حديث العاقل ، يقدر الاساءة اليه ، ويقدر شخص المسىء ، ويعفو عن هذه الاساءة كما يعفو العاقل الغفور الرحيم .

« قيس لا ـ سامح صغاراً لا يحسون الخطيئه »
« انهم فيما أتوه ببغاوات بريئه »
« لقنوها كلمات نزهات أو بذيئه »

ثم تأخذه الغيبوبة فينسى ما حوله ، ويظل أسيرها لحظات حتى يفيق منها فيتحدث عن هواه حديث المحب العاقل يسمع اسم ليلى على ألسنة الناس فيثار ويناقش ويخيل اليه عند ما ينتهى رنين الصوت فى أذنه ، أن هذا الصوت لم يكن إلا هذيان اغماء

« ليلى . . . . »

« هل المنادون أهلوها و إخوتها أم المنـادون عشاق معاميـد »
« إن يشركونى فى ليلى فلارجعت جبال نجد لهم صوتا ولا البيد »
« أغير ليلاى نادوا أم بها هتفوا فداء ليلى الليالى الخرد الغيد »
« . . . . »
« ليلى لعلى مجنون يخيـل لى لاالحى نادواعلى ليلى ولا نودوا »

وفى الفصل الثالث يغمى على قيس للمرة الثالثـة ، فى لحظة أخرى أحرجتها خشية الموت وخشية الفشل . . . وقبل هذه الغيبوبة كذلك كان قيس يناجى ليلى وحيّها مناجاة العـاقل و يقرر و ينفى و يناقش فى منطق سليم ، ثم تدركه النوبة و يعوده الاغماء ، وقبيل أن يتمكن منـه يرى ما لا يراه الناس فى حى ليلى ، يراها هى ولا يحقق غيرها و إن كثر لدى حماها السواد ، وما فى حى ليلى سوى سـيوف مسلولة وأسود مغضبة ، تترقبه لتشرب دمه وتنتقم منه لقداسة التقاليد ، ثم « يتضاءل و يصفر به مثـل الجرادة » و يكاد يهوى إلى الأرض فيتلقـاه زياد ، وتأخذه الغيبوبة المعهودة ولا نستطيع أن نتعقبه عند ما يفيق

ثم يكون الفصل الرابع فنرى قيسا على مقربة من دار ليـلى

وحيها الجديد ، وفى لحظة لا بد أن تكون هى الأخرى كأخواتها حرجة ، يحرجها الجهد والتعاسة ووعثاء السفر ، وتوقع لقاء الحبيب ، نراه يتصور صورا لا يمكن أن تخطر فى خيال عاقل ، فهو يرى الجن ويصفهم ويتحدث معهم ، ويقول لأحدهم :

« ما أنت إلا صوره   فى عصبى مصوره »
« وعبث لو كان عقـــلى حاضرا لأنكره »

ثم يسترد عقله الكامل بعد هذه الأزمة الحرجة فيناجز غريمه فى ليلى مناجزة العاقل ، ويتهكم عليه تهكم العاقل ، ويناقشه مناقشة العاقل ، ويغار منه غيرة العاقل ، ثم يسلمه غريمه الى ليــلاه ، فاذا حديثه اليها حديث العاقل كذلك ، واذا نجواه منها فى دائرة المنطق السليم ، وإذا غيرته كذلك وغضبــه وكل ما يفعل لا تصدر الا عن محب عاقل غيور

ثم يكون احتضاره فى الفصل الخامس ، حيث يسمع مالايسمع الناس ويرى مالا يرى الناس وما يعنينا هذا الاحتضار أن يعقل فيه أولا يعقل ، فقد يهـذى كل محتضر ويخلط ، وحسبنا مادة للبحث

تلك الفترات القصار التى كانت تتضع بقيس وعقله الى مكان بين بين، لا هو من الموت ولا هو من الحياة

أية صورة من صور العافية أو أية صورة من صور الجنون الذى يعتاد سواد الناس ، تستطيع أن تعطى حيرة الناس فى أمر قيس ، وحيرته فى أمر نفسه ، وتلك الأدوار المتناقضة فى هذه الحياة المضطربة صحو يكون العقل والحواس والحركات فيه أصفى وأسلم ما تكون العقول والحواس والحركات، ثم غيبوبة يختلط فيها العقل وتنطلق الحواس وتنشل الحركات ، ثم كذلك دواليك حتى تنطفىء هذه الحياة ؟ ؟

لاشىء من صور الصحة ولاشىء من صور الجنون ، يستطيع أن يغطى هذه الظواهر ، انما الذى يغطيها ويشتملها جميعاً هو المرض والمرض أنواع .

قيس إذن فى نظر المؤلف رجل عاقل مريض ، بالغ الهوى له فى وطأة الداء ، وليس ضلال الناس فيه ، وليس ضلاله فى نفسه إلا جهلا بهذا الداء كيف يكون ، وتسمية له بأقرب الأسماء اتصالا بهذه

الحياة المضطربة ، فى رأس هـذا البدوى الجاهل بضروب العلل والأدواء ، وأى الأسماء فى هذا الرأس أقرب اتصالا بهذه الحياة من ذلك الاسم القديم المعروف . . . الجنون ؟ ؟ كما أن ضعفه وهزاله كما يبدوان لك — أظهر ما يبدوان — فى قوله عن نفسه :

« أنا الميت يا بشر وإن أخر تكفينى »

ليس هذا الضعف والهزال الا مزيجا من وقدة العاطفة وزمنة الداء

ومن السهل بعد هذا أن تتعقب أخلاق قيس فى الرواية ، إباءه وعزته ، ورفعته وسماحته ، وأثرته وغيرته ، وليست كلها إلا صورة لأخلاق شاعر محب مريض

ليــــلى

تتلخص حياة ليلى وحبها فى هذه الـكلمات :

« أنا بين اثنتين كلتاهما النار . . . . »

« بين حرصى على قداسة عرضى واحتفاظى بمن أحب وضنى »

فأما أنها كانت تحب قيسا فقد ظلت تعترف بهذا الحب طول

الرواية تارة بينها و بين قيس ، وتارة أخرى بينها و بين الناس ، وأما أنها كانت تحمل من هواها ما يحمل قيس من هواه ، وتصون منه ما يصون ، فهى و إن ألحت فى التصريح به ، فقد كان سلطان التقاليد البدوية عليها أقوى من سلطان هذا الغرام ، وقد رضيت أن تقتل نفسها وتقتل هواها وتخيب فى قيس شفاعة الشافعين حرصاً على حرمة هذه التقاليد

ولقد تختلط هذه الحقيقة المؤكدة بكلمة نطقت بهـا ليلى ، إذ يقول لها أبوها وقيس مغمى عليه فى داره ، وليلى تستنصر له وتستغيث « يرانا الناس ياليلى » فتجيبه « أب أنف الناس من فكرك »

كذلك تبدو ليلى كأنمـا تحتقر الناس وما يقولون ، لـكنها لا تلبث أن تستدرك هذه العثرة فتقول ، وتخشى من سلطان التقاليد ما كانت دائما تخشاه :

« هنا لا تقع العين على غيرى ولا غيرك ! »

والى جانب هذا الحرص على كرامة التقاليد منحها المؤلف قوة فى الرأى وعناداً فيه ، قد يكونان أثر هذا الحرص فى نفسها وتراها حيث يقول عنها قائل :

« أراها وان لم تخط الشباب عجوزا على الرأى.لا تغلب.»

وحيث يستغل أبوها فى نفسها هذه القوة ، فيدارى ابن عوف على حسابها ، ويطلق لابنته الحرية أن تتزوج من قيس أو من سواه ، وهو مؤمن كل الايمان بقرارها الأخير . وحيث يستغل زوجها ورد فى نفسها هذه القوة كذلك فيفتح بيته لغريمه راضياً ، ويترك شرفه تحت رحمة هـذا الغريم راضياً ، وهو موقن كل اليقين أن شرفه — ومن دونه هذه القوة — مصون لا يخشى عليه عدوان . وحيث تبرهن ليلى على هـذه القوة الـكامنة فى نفسها برهاناً قوياً فى آخر مواقفها وقيس ، ترى فيه مورد الهوى صافياً ممهد السبيل ، ثم تأباه على نفسها ، وتموت عطشى حرصاً على العرض والشرف وكرامة التقاليد .

المهـــــــدى

هذا الرجل طريدة أخرى من طرائد التقاليد البدوية فى هذه الرواية ، لـكن طاعته إياها رزينة لا تعرف العنف ، طاعة تخفف منها عاطفة الحنان على ابنته إذ يقول :

« أخاف الناس فى أمرى   وأخشى الناس فى أمرك »

« وكم داريت يا ليلى   وكم مهدت من عذرك »

وعاطفة الرفق بشاب من ذويه زلت به هذه التقاليد إذ يقول :

« دم الود والقربى وإن كان ظالما   عزيز علينا أن نراه يسيل »



مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
١٩١٦ / ٣١ / ١٠٫٠٠٠